مقدمة

طرأ على المجتمع في العصر العباسي، تغيير كبير بحكم التمازج الذي حدث بين العرب وغيرهم من الأمم الأخرى، مما جعله يتميز بتعدد العناصر والثقافات، وبقوة الخلفاء وعظمتهم، وبنفوذ الفرس وغلبتهم على العنصر العربي. وقابل هذا التغيير الحضاري؛ تيار معاكس له، آثر حياة البداوة متأثرا بها محافظا على التراث العربي القديم في كل ما يتعلق بحياتهم الإجتماعية والأدبية وغيرها من ضروب الحياة. وكان هناك صراع بين القديم والجديد وانقسم الشعراء الى فئتين: فئة تأثرت بالحياة الجديدة وانجرفت في تيارها، وفئة آثرت القديم، ظلت محتفظة به.

وقع اختياري على موضوع الدراسة لسببين:

- رغم كثرة هذه الفئة من الشعراء وغزارة انتاجهم الشعري، إلا أنهم لم يحظوا بدراسة مستقلة.
- جانب البداوة في شعر العصر العباسي الأول، والمحافظة على الأسس القديمة في ظل المفاهيم الجديدة التي اجتاحت الحياة، والقت بظلالها على الشعر؛ يحتاج لوقوف وتدقيق، خاصة أن دعاة التجديد أنفسهم لم يتخلوا عن القديم ونهجه.

مشكلة البحث وفروضه:

أما مشكلة الدراسة، فتكمن في:

- التشابه الكبير في النهج والاسلوب المتبع عند الشعراء البدو وغيرهم من والمحافظين والمجددين.
- نهج الشعراء المجددون نهج القدامى في الكثير من أغراضهم. لذا صعب التمييز بينهم وبين البدو والمحافظين. فمن هم البدو وإلى أي مدى كان تأثير الشعر القديم على شعرهم؟

حدود البحث:

أما حدود الدراسة الزمانية فتشمل العصر العباسي الأول (١٣٢-٢٣٢هـ). ومكانها بلاد الشام وباديها وامتدت لتشمل جزيرة العرب بصحاريها ووديانها باعتبارها أصل العرب وموطنهم.

منهج البحث

اتبعت الدراسة المنهج الوصفي التحليلي باستقراء النصوص وتحليل بعض الأبيات باعتبارها نماذَج.

الدراسات السابقة:

واستعنت بعدة مصادر، تبعثرت المعلومات والشواهد والآراء في ثناياها:

- الدراسات السابقة من البحوث العلمية؛ لم أجد دراسة سابقة فيما بين يدي من المصادر؛ تتصل مباشرة بالموضوع أو قريبة منه، ولكن هناك بعض الدراسات عن شعراء مصنفين من البدو.
- بعض الكتب الحديثة على قلتها، إلا أنه لها فضل كبير في إثراء هذه الدراسة، أهمها: (كتاب الشعر عند البدو لشفيق الكمالي، والعصر العباسي الأول لشوقي ضيف– ابن قتيبة: الشعر والشعراء–ابن رشيق: العمدة–بالإضافة إلى دواوين الشعراء موضوع الدراسة وكتب أخرى).
- المصادر وأمهات الكتب القديمة: (الأصفهاني– الأغاني، مقدمة بن خلدون الجاحظ: الحيوان والبيان والتبيين. ،خزانة الأدب–البغدادي، المرشد الى فهم أشعار العرب–عبد الله الطيب. وطبقات الشعراء لابن المعتز–وغيرها كثير).

حسبي من هذه الدراسة نصيب المجتهد، فإن وفقت فمن الله، وإن أخفقت فمن نفسي، أتمنى أن يرضيكم جهدي وأسأل الله القبول.

هيكل البحث:

يتكون البحث من ثلاثة فصول واثني عشر مبحثاً :

الفصل الأول بعنوان: البداوة والشعر في العصر العباسي الأول وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول بعنوان: الحياة في العصر العباسي الأول: تحدثت فيه عن حياة العصر السياسية وعن الخلفاء العباسيين ودورهم في المحافظة على اللغة والادب وعن غلبة العنصر الفارسي. والحياة الاجتماعية واختلاط العرب بغيرهم ونتائجه، والترف والمجون، والحياة الدينية العقلية.

المبحث الثاني بعنوان: البداوة في شعر العصر العباسي: تحدثت فيه عن مفهوم البداوة والطبيعة البدوية وأثرها في الشعر والشعراء. في العصر الجاهلي والعباسي.

والمبحث الثالث بعنوان: نهج الأقدمين في شعر العباسيين: وتحدثت فيه عن أغراض الشعر القديمة عند شعراء العصر العباسي البدو منهم والمحافظين والمجددين، وتمسكهم بنهج القدامى من الشعراء.

الفصل الثاني بعنوان: "الشعراء البدو في العصر العباسي" وفيه ستة مباحث تناولت في الخمسة الأولى حياة الشعراء وشعرهم ومذاهب بعضهم وشخصياتهم:

المبحث الأول بعنوان: مرون بن أبي حفصة

المبحث الثاني بعنوان:الحسين بن مطير

المبحث الثالث بعنوان:ابراهيم بن هرمة

المبحث الرابع بعنوان: علي بن الجهم

المبحث الخامس بعنوان: ابن ميادة

المبحث السادس بعنوان: شعراء آخرون: وتحدثت فيه عن بعض الشعراء المغمورين وعرضت نماذج من شعرهم الذي عكس جانب بداوتهم.

الفصل الثالث بعنوان–الدراسة الفنية لشعر البدو: ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول "بعنوان "الخصائص الموضوعية: وتحدثت فيه عن النهج التقليدي للقصيدة العربية التي تبتدئ بالمقدمة الطللية بأنواعها المتعددة من وقوف على الاطلال، واستيقاف الصحب، وذكر الطيف، والدعاء بالسقيا وغيرها. ثم التخلص إلى الموضوع وخاتمة القصيدة.

المبحث الثاني بعنوان الخصائص الأسلوبية: وتحدثت فيه عن الألفاظ والمعاني، والصنعة والخيال، والموسيقى والأوزان.

المبحث الثالث بعنوان تحليل نماذج شعرية: واخترت فيه بعض النماذج لشعراء بدو وقمت بشرح معانيها الصعبة ومن ثم تحليلها حتى تكتمل الصورة.

الفصل الأول

البداوة والشعر في العصر العباسي الأول

المبحث الأول: الحياة في العصر العباسي الأول

المبحث الثاني: االبداوة في شعر العصر العباسي الأول

المبحث الثالث: نهج الأقدمين في شعر العباسيين

المبحث الأول

الحياة في العصر العباسي الأول

الحياة السياسية:

تولى الخلافة في هذا العصر عشر خلفاء خضعت لسلطانهم أمم وحضارات قديمة. أول هؤلاء الخلفاء السفاح (أبو العباس) الذي اشتهر بالقهر وجعل من الكوفة عاصمة له، وكانت مدة خلافته أربع سنوات (١٣٢-١٣٦هـ) وتولى بعده أخوه أبو جعفر المنصور، (وظلت خلافته أكثر من عشرين عاماً (١٣٦-١٥٨هـ) ففي أيامه كان المبدأ المعمول به هو استعمال الفرس وجعلهم رؤساء على العرب. وكان أكثر من تولى له الأعمال فرسا)،[١] وبني الخليفة المنصور بغداد وجعلها عاصمة له (كما بني الرصافة وشجع العلوم والثقافة. وكان مهيباً في رأيه، جميل التدبير حسن السياسة).[٢]

ثم تولى بعده ابنه المهدي الذي ازدهرت في عهده الحضارة ومات سنة ١٦٩هـ فتولى بعده ابنه الهادي الذي ظل في الخلافة سنة واحدة وخلفه أخوه هارون الرشيد بن المهدي، وفي عهده زاد نفوذ الفرس على يد وزرائه من البرامكة، وتوفى الرشيد سنة ١٩٣هـ وتولى بعده ابنه الأمين (١٩٣-١٩٨هـ) ثم ابنه المأمون (١٩٨-٢١٨هـ) وفي عهده كان الفرس قد سجلوا انتصاراً جديداً ، فقد اعتبروا انتصار المأمون انتصاراً للجنس الفارسي على الجنس العربي، فتأكدت مكانتهم ورسخت أقدامهم وسار النفوذ الفارسي إلى أن جاء المعتصم (٢٢١-٢٢٧هـ) فبني سامراء وجعلها عاصمة له عام ٢٢١هـ وولي بعده ابنه الواثق، وكانت فترة حكمه (٢٢٧-٢٣٢هـ).[٣]

ففي هذه الفترة من حكم الدولة العباسية اعتمد الخلفاء على العنصر الفارسي وكان بيد هؤلاء الفرس مقاليد الأعمال وتصريف شؤون الدولة. وكان لهم نفوذ كبير وتأثير على سياسية الخلفاء. ومن مظاهر نفوذ العنصر الفارسي نقل العاصمة إلى بغداد لقربها من

---

[١]-الجهشياري، الوزراء والكتاب، طبعة الحلبي، ١٩٣٨م، ص١٢٤.

[٢]- حسن جاد حسن وآخرون، الأدب العربي في ظلال الأمويين والعباسيين، دار التأليف، مصر، ١٩٥٣م، ص١٣٣.

[٣]- صالح بيلو، الثقافات الأجنبية في العصر العباسي الأول وصداها في الأدب، مكة المكرمة، ١٩٨٨م، ص١٤.

خراسان. ونقلهم نظام الفرس الكسروي في الدواوين الساسانية وأساليب الحرب. وقد أخذ العباسيون نظام الوزارة عن ملوك بني ساسان إضافة للنظم الإدارية والسياسية.

وتوسع الخلفاء في محاكاة الدواوين الساسانية، (وكان في كل ولاية ديوان للخراج يقوم عليه موظف ينفق منه على الولاية، ويرسل ما تبقى من الأموال إلى بغداد، حيث كان لكل ولاية ديوان خاص، وسمي مجموع هذه الدواوين باسم بيت المال وقد عُهد أمره إلى خالد بن برمك وتولى أيضاً ديوان الجند).[١]

وكان لدار الخلافة ديوان خاص يقوم على نفقاتها، ومن أهم الدواوين ديوان الرسائل الذي لعب دوراً كبيراً في نهضة النثر العربي. وكانت تصدر عنه رسائل الخلفاء. وكان بجواره ديوان الخاتم الذي تختم فيه الرسائل بعد مراجعتها. وديوان التوقيعات وهو خاص بالنظر في المظالم، ورقع أصحاب الشكاوى. وكان من عادة ملوك الفرس ووزرائهم، أن يوقعوا عليها بعبارات موجزة بليغة، فجاراهم خلفاء بني العباس ووزرائهم في هذا الصنيع.

هكذا أصبحت الدولة العباسية عربية اللغة، إسلامية الدين والأخلاق، فارسية المعيشة، ساسانية الإدارة والسياسة. من هنا يمكننا أن نحصر سياسة الدولة العباسية في نشر الثقافة والحضارة في أرجاء الدولة الواسعة، والاهتمام بأمر الموالي وكان الفرس أكثر حظاً من الخلفاء إضافة إلى العناية بالمظهر الديني الذي أقاموا عليه دعوتهم وشيدوا على أساسه دولتهم. وكانوا يخرجون إلى الصلوات الجامعة يخطبون الناس ويعظونهم، وعليهم بردة النبي صلى الله عليه وسلم وبين أيديهم أئمة العلماء ورجال الدين.[٢]

---

[١]- شوقي ضيف، العصر العباسي الأول، دار المعارف- طبعة٣، د.ت، ص٢٢.

[٢]- المرجع السابق، ص٢٢.

الحياة الإجتماعية:

وكما كان للعنصر الفارسي والعناصر الأعجمية الأخرى أثر في الحياة السياسية وتكوينها. كذلك كان لهم تأثيرهم في الحياة الاجتماعية والأدبية. فقد تأثر المجتمع العباسي بما كان في المجتمع الفارسي من لهو ومجون، ساعده على الحرية المطلقة في الدولة العباسية، فأدمنوا الخمر وحاكاهم من عاشرهم من بقية الشعوب حتى أصبحت ظاهرة عامة على الرغم من نهي القرآن الكريم عنها إذ يقول جل شأنه (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ). (سورة المائدة:٩٠) ومما ساعد على انتشارها وإقبال الناس عليها اجتهاد بعض فقهاء العراق وتحليلهم بعضها كنبيذ التمر والزبيب المطبوخ أدنى طبيخ ونبيذ العسل والتين.[١]

وقد تفنن الشعراء في وصف الخمر وكانت من الأغراض المستخدمة التي نادي بها أبو نواس فوصفوا نشوتها وآثارها في الجسد والعقل ووصفوا كؤوسها ومجالسها وندماءها وسقاتها، وكانوا عادة من النصارى والمجوس، وكانوا يزينون رؤوسهم بأكاليل الزهر، كماكانوا يزينون قاعة الشراب بالرياحين وغيرها من الأزهار، وفي ذلك يقول أبو نواس:[٢]

ودار نـــــدامى عطّلوهـــــا وأدلجـــــوا بهـــا أثـــر مـــنهم جديـــد ودارس

مســاحب مــن جــر الرقــاق علــى الثــرى وأضـــغاث ريحـــان غنـــي ويـــابس

فخلفاء بني العباس عاشوا حياة مترفة كلها بذخ. وكانت خزائن الدولة هي المعين الذي هيأ لكل هذا الترف، فقد كانت تحمل إليها حمول الذهب والفضة من أطراف الأرض. حتى قالوا: إن المنصور خلف حين توفى أربعة عشر مليوناً من الدنانير وستمائة مليون من الدراهم. وروي أيضاً أنه فرض لكل شخص من أهل بيته مليون درهم كل عام.[٣]

---

[١]-أحمد أمين، ضحى الإسلام، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٣٣م، ج١، ص٧.

[٢]- ابن المعتز، طبقات الشعراء، طبعة دار المعارف، د. ت، ص٢٠٦.

[٣]- الأصفهاني، على بن الحسن- الأغاني، ج٦، دار الكتب ١٩٣٥م، ص٢٢.

وكان الخلفاء والوزراء والولاة والقواد يغدقون الأموال على العلماء والأطباء والشعراء والمغنيين، ويروى أن المهدي كان ينفق أموالاً طائلة على الشعراء والمغنيين.[١]

وكان لهذه الأموال المغدقة على العلماء والأطباء والمترجمين، والشعراء والمغنيين، أثرها الكبير في نهضة العلوم والآداب والفنون.وجعل حياة هؤلاء نعيماً خالصاً .

فقد زُينت الدور، وأتيح كل ما يجعل الحياة ممتعة هانئة. ورُوي أن المهدي كان يجلس على فرش موردة، وعليه ثياب موردة[٢]. وروي أيضاً عن مجلس الرشيد أنه كان يعبق بالطيب والزعفران. وروي أيضاً عن زواج المأمون ببوران بنت وزيره الحسن بن سهل أنه أنفق فيه ما يفوق الأساطير.[٣]

وكذلك يتضح بذخ الطبقة المترفة هذه في مطعمها ومشربها. وتفنن الطهاة في أنواع الطعام، ومما يدل على ذلك ما يروي عن المأمون أن مائدته ضمت ذات يوم ثلاثمائة لوناً من الطعام.[٤]

وكان من أهم آثار هذا انشغال الخلفاء بالترف والملذات مما أدى إلى انهيار الدولة العباسية وانقسم المجتمع حينها إلى فئتين، فئة يعمها البؤس والشقاء، وأخرى النعيم والترف. وكانت الأولى تمثل الجانب الأكبر في حياة المجتمع العباسي. أما الرقيق فقد كثر بسبب الأسر في الحرب وبسبب انتشار تجارته. جاء في البيان والتبيين [أنه كان في بغداد شارع يسمى شارع الرقيق].[٥] وكان رقيق النساء من الجواري أكثر عدداً من رقيق الرجال. فقد ذخرت بهن الدور والقصور. وكن من أجناس وثقافات وديانات وحضارات مختلفة وامتد أثرهن إلى قصر الخلافة.

---

[١]- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير- تاريخ الأمم، ج٦، دار المعارف، ١٩٦٢م، ص٢٧.

[٢]- الجهيشاري، الوزراء والكتاب، ص١٦٠.

[٣]- الطبري- تاريخ الأمم، ص٢٧.

[٤]- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر- البيان والتبيين، مكتبة الخانجي، القاهرة، ج١، ط٤ د.ت، ص٦٩.

[٥]- المسعودي، ابو الحسن علي بن الحسن بن علي- مروج الذهب ومعادن الجوهر-مطبعة السعادة القاهرة-ط٤- ١٩٦٤- ٤/ص٤٤م.

وكان قصر الأمين يذخر بالجواري الغلاميات (اللائي يلبسن لبس الغلمان). ويروى أنه كان لزوج يحيي البرمكي مائة وصيفة لبوس كل واحدة منهن وحليها خلاف لبوس الأخرى وحليها.[١]

وهؤلاء الجواري والقيان أشعن الرقة والظرف بين شباب المجتمع العباسي، واقترنت بهذا الظرف مظاهر كثيرة في الأزياء والعطور، وآداب الطعام والسمر. ومن أهم مظاهره تبادل الهدايا بالأزهار والرياحين رامزين بأسمائها إلى معاني المودة. وكان كثير منهن يتقن فنون الآداب. فكن يجمعن إلى جمالهن عذوبة الحديث. وكان منهن من يتقن نظم الشعر، ومنهن من يجدن الغناء. وكان لهذا الغناء دور في رفع أثمان الجواري.[٢]

ومما لا ريب فيه أن إدمان الخمر حينئذ، وما أشعنه الجواري؛ دفع إلى العبث والإباحية. فكان المجتمع ذاخراً بزنادقة، وملاحدة، وفئات من ديانات شتى. فمضى كثير من هذه الفئات إلى ارتكاب الآثام، متحررين من كل قانون للخلق، والعرف، والدين. وكن سبباً في انتشار الفتنة والإغراء، وانتشار الغزل المكشوف الذي لا تصان فيه كرامة لامرأة، ولا رجل، ويمثل هذا التيار بشار بن برد. كما أشاع هؤلاء المجان آفة التعلق بالغلمان، وأول من اشتهر بالغزل فيهم والية بن الحباب.[٣]

ولم تكن الحياة في بغدادكلها لهواً، ومجوناً، ولم يتخل الناس عن تعاليم الإسلام، والحياة المستقيمة، التي يزينها الخلق، والتقاليد، والدين، فقد نجد هذه الإباحية حيث بيوت المقينين.* ومن يفد عليها من الفتيان والشعراء للشراب، والمجون بلا حياء.

---

[١]- الجيهشاري، الوزراء والكتاب، ص٤١.

[٢]- أحمد أمين، ضحى الإسلام، ج١، ص١١٩.

[٣]- المرجع السابق، ص١١٩.

* المقينين: الماجنين.

الحياة الدينية:

إضافة إلى هذه الظواهر التي ذكرناها ظهرت العصبية والتفرقة بين الشعوب. فنادي الإسلام بهدم هذه الفوارق حتى يسود الوئام بين أفراد الأمة الإسلامية، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم في خطبة الوداع:[1] (أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد،ألا لا فضل لعربي فضل على عجمي إلا بالتقوى). وقد قسمت ظاهرة العصبية والتفرقة إلى ثلاث فئات:[2]

الفئة الأولى:

تذهب إلى أن العرب خير الأمم وحجتها في ذلك أنهم عاشوا حياتهم متمتعين باستقلالهم. وأن لهم صفات خلقية امتازوا بها مثل الكرم، المروءة والعفة. ومثلهم الأعلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي علمهم مكارم الأخلاق. وهذه الفئة تمثلها أشراف العرب والبدو، ومنهم قوم من العجم أسلموا إسلاماً عميقاً وأحبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

الفئة الثانية:

تذهب إلى أن العرب ليسوا أفضل من غيرهم من الأمم ولا أمة أفضل من أمة. وليس تفاضل الناس فيما بينهم ولا بأحسابهم. ولكن بأفعالهم، وأخلاقهم وشرف أنفسهم وبُعد هممهم، يقول ابن عبد ربه: (إنما الكريم من كرمت أفعاله، والشريف من شرفت همه)،[3] وحجة هؤلاء (أن في كل أمة الطيب والخبيث، ولكل أمة محاسنها ومساوئها، وميزان الأعمال الدين والخلق).[4]

الفئة الثالثة:

وهذه تميل إلى الحط من شأن العرب وتفضيل غيرهم من الأمم عليهم. وحجتهم في ذلك أن العرب ليست لهم ميزة يمكن أن يفتخروا بها. ويمثل هذا الصنف الذين

---

[1]- ابن حنبل، ابو عبد الله أحمد بن محمد- تح: شعيب الأرناؤوط وآخرون- مؤسسة الرسالة -ط١-٢٠٠١ج٣٨- ص٤٧٤.

[2]- أحمد أمين، ضحى الإسلام، مرجع سابق، ص١٢٠.

[3]- ابن عبد ربه، أبو عمر أحمد بن محمد -العقد الفريد، ج٢، المطبعة الأزهرية المصرية، ط٢، ١٩٢٨م، ص٧٢.

[4]- أحمد أمين، ضحى الإسلام-ص١٢٠.

يحتقرون العرب، ويسوِّدون كل أمة عليهم. وكان بشار ممن أوقد نيران الخصومة ومدها بأشعاره، إذ تبرأ من العرب وولاتهم، يقول:[1]

أصـــبحت مـــولى ذي الجـــلال وبعضـــهم مـــولى العريـــب فخـــذ بفضـــلك وأفخـــر

وظهرت في هذا العصر مبادئ الزندقة. ففطن لها خلفاء بني العباس وتعقبوا أصحابها فقتل في هذا العصر كثير من رؤوس الزنادقة، ولم يكن خلفاء الدولة العباسية يقتلون الزندقة إلا بعد ثبوتها على صاحبها.

ومع وجود حركة الزندقة والمجون، ظهر تيار معاكس هو تيار الزهد، وكان من الوعاظ من يقتحم قصر الخلافة ليعظ الخلفاء. ومنهم ابن السماكُ في وعظه لهارون الرشيد يقول: (الدنيا كلها قليل، والذي منها في جنب الماضي قليل لم يبق من قليلك إلا القليل).[2]

وقد ظهر تيار معاكس لحركة الزندقة مثّله عدد غير قليل من أمثال صالح ابن عبد القدوس. الذي صنف من الزنادقة، في أننا نجد كثيراً من أشعاره يدور حول التنفير من الدنيا ومتاعها الزائل، وذكر الموت، والحث على مكارم الأخلاق وطاعة الله.

فشيوع ذلك في أشعاره جعل ابن المعتز يشكك فيما نسب إليه من الزندقة مستشهداً بقوله:[3]

ولـــــيس بعجـــــز المرءأخطـــــاؤه الغنـــــى ولا باحتيـــــال أدرك المـــــال كاســـــبه

ولكـــــن قـــــبض الإلـــــه وبســـــطه فـــــلا ذا يجاريـــــه ولا ذا بغالبـــــه

---

[1]- الأصفهاني، الأغاني، ج٣، دار الكتب، ط١، ١٩٢٩م، ص١٣٩.

[2]- الأتابكي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغر بردي النجوم الزاهرة، دار الكتب المصرية، ١٩٣٠، ١٨٢/٣.

[3]- ابن المعتز، طبقات الشعراء، ص٩٠.

* نشأ في البصرة وكان يعظ الناس، اتهم بالزندقة وقتل ١٦٧هـ (عصر المأمون).

يقول ابن المعتز:[1] (فيا عجباً كيف يقول زنديق مثل هذا القول، وكأنه اقتبسه من الذكر الحكيم من أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر. أي يضيقه ويجعله بقدر قليل). (وهو من الشعراء الذين لم يتكسبوا بشعرهم).[2]

هكذا تنوعت الحياة الاجتماعية في العصر العباسي وتعددت مناحيها فشملت كل المجالات، وكل حركة تقوم كان لها تيار معاكس. ويرجع ذلك للتمازج الذي حدث في تلك الفترة بين أمم، وقبائل كثيرة، لكل منها لغتها، وعاداتها، وتقاليدها، وثقافاتها. وتمازجت هذه الشعوب بالتزاوج، والتسري وبالتناسب والولاء. كما تمازجت بالمعارف والثقافات، وكانت اللغة العربية هي اللسان السائد المعبِّر عما تم من تمازج وثقافات هذا الخليط الكبير من الناس.

---

[1]- ابن المعتز، طبقات الشعراء، ص٩٠.

[2]- جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، ج٢، دار الهلال، د.ت، ص٨٨.

الحياة العقلية:

ولما كان تشجيع العلم ومكافأة أهله سمة من سمات هذا العصر، تنافس الناس عليه، وطلبوه في المساجد وغيرها من الأماكن. فكان العلماء يختارون المساجد أماكن يقصدهم فيها طلاب العلم والمعرفة.

ومن الأماكن التي يرتادها الناس للعلم، سوق البصرة، المعروف بالمربد، وكان الشباب يغدون ويروحون للقاء الفصحاء من الأعراب، والتحدث إليهم تدريباً لألسنتهم، ومحاولة لاكتساب السليقة العربية الخالية من شوائب العجمة، وكان من الشباب من يرحل إلى البادية ليأخذ اللغة والشعر من ينابيعهما الأصلية.

وكانت المساجد ساحات العلم الكبرى فلم تكن بيوتاً للعبادة فحسب بل كانت أيضاً معاهد لتعليم الشباب حيث يلتفون حول الأساتذة في شكل حلقة، ومن هنا أتت عبارة حلقات العلم. ويقال أنه كان يحضر حلقة ابن الإعرابي الكوفي (من علماء الكوفة)، زهاء مائة شخص.[١] وكثيراً ما كانت تدور في تلك الحلقات المناظرات بين أصحابها. على نحو ما يُروى عن الأخفش من أنه تعرض للكسائي في حلقة فسأله محاوراً، ومناقشاً مناقشات مستفيضة.[٢] وكانت هناك حلقات للشعراء ينشدون فيها أشعارهم.[٣] وقد ساعدت حلقات العلم هذه على وجود ظاهرتين:[٤]

- أولها: كثرة العلماء المتخصصين في علم واحد.
- ثانيها: نشوء طائفة من العلماء والأدباء الذين نوعوا معارفهم، إذ أنهم مضوا يختلفون إلى جميع الحلقات، آخذين بطرق من كل لون من ألوان المعرفة، وكان يطلق على هذه الطائفة المسجديين وقد عرض الجاحظ في كتاب البخلاء[٥] صورة من حياتهم تناولوا فيها الاقتصاد في النفقة.

---

[١]– الفقطي، الوزير جمال الدين أبو الحسن على يوسف –أنباه الرواة على أنباء النحاة، تحقيق العميد الفضل إبراهيم ج٣/١٣٠، ١٩٥٥.

[٢]– الحموي، ياقوت– معجم الأدباء، مكتبة عيسى البابي الحلبي وشركاءه، مصر مطبعة المأمون، د.ت، ص٢٢٨.

[٣]– المرزباني، أبو عبد الله محمد بن حمدان بن موسى –الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء، المطبعة السلفية، ٣٤٣هـ، ص٢٨٩.

[٤]– شوقي ضيف، العصر العباسي الأول، ص١٠٠.

[٥]– الجاحظ، البخلاء، دار المعارف، ١٩٦٣، ص٢٩.

وكان من أهم الأسباب في بلوغ الحركة العلمية غايتها من النهضة الواسعة استخدام الورق، فاتسعت صناعة الورق، وأخذ العلماء يفيدون منه فاتخذوا لأنفسهم وراقين ينقلون عنهم كتبهم ويذيعونها في الناس.[١]

كذلك ازدهرت الحركة العلمية في مجالس الخلفاء والأمراء والوزراء، فجمع مالك بن أنس كتابه الموطأ معتمداً على توجيهات المنصور معترفاً بكفاءته في تصدر المجالس، وتوجيه المناظرات العلمية والأدبية. وقد وزع المهدي أيامه توزيعاً عادلاً على العلوم والفنون، يستقبل العلماء في يوم، والأدباء في يوم، ورجال الفنون الأخرى في يوم آخر. وكل جماعة من هؤلاء يعرضون عليه ما وصلوا إليه. وكان يناقش ذلك كله عن سعة علم، ونضوج عقل، وكذلك عرف هذا عن الرشيد الذي كانت له جولات مع العلماء والأدباء. أما ابنه الأمين فقد انصرف إلى اللهو بخلاف أخيه المأمون الذي كان مجلسه ساحة واسعة للجدل والمناظرة وكان مثقفاً بالعلوم الدينية واللغوية والفلسفة وعلوم الأوائل. وكان المعتصم على عدم علمه بالقراءة والكتابة،[٢] يدير حلقات العلم والأدب والجدل والمناظرة.

كما نشطت حركة التأليف أيضاً وشملت مجالات عدة فظهر التأليف في الفقه وتعدد علماؤه. كذلك نشأ التأليف في علم الكلام، وفي النحو، وعلوم البلاغة، وعلوم العروض الذي يتعلق بوزن الكلام، كما ألفوا في متن اللغة والأدب.

فالحياة في العصر العباسي الأول كانت غنية بشتى أنواع العلوم والفنون والآداب متميزة عن غيرها من حياة العصور الأخرى، لما فيها من تأثير وتأثر واختلاط بين العرب والفرس وغيرهم من الأمم الأخرى. فتنوعت اتجاهات الشعر ما بين جاهلي وإسلامي ومحدث أو مولد، وما بين أهل البديع وأهل الصنعة، وأهل اللفظ أو المعنى. لكن كل هذه الظواهر المتعددة المعاصرة للشعر العباسي مع اختلافها كانت تشكل صورة العصر الادبية. وكان السلطان ومن حوله يقف إلى جانب التيار المعتدل باعتباره يمثل المحافظة على الموروثات في مواجهة التيارات الرافضة أو المتمردة. وكان ذلك أظهر ما يكون في

---

[١]- القفطي، أنباه الرواة على أنباء النحاة، مرجع سابق، ص٣٤.

[٢]- أبو الخشب، إبراهيم –تاريخ الأدب العربي، دار الفكر العربي، ١٩٦٦، ص١٣٧.

شعر المديح، الذي يمثل قوة التاريخ واستمرار الأصالة في حين كانت الطبائع الأعجمية وخاصة الفارسية تقف من وراء تيارات الرفض، والثورة سواء في الاجتماع أو الفكر أو الدين من مجون وشعوبية وزندقة. ومن هنا حدث الانقسام في المنحى الشعري عند شعراء العصر العباسي، فهناك شعراء أرادوا أن يأخذوا أحكامهم من الواقع الحضاري الذي يعيشون فيه، وشعراء آثروا القديم فوجدوا أنفسهم مشدودين إلى الماضي، وفئة ثالثة آثرت القديم في بعض الأغراض، وكانت ذات إلمام بحضارتها وثقافتها.

ومنهم من عاش في البادية فأثرت فيه الحياة البدوية فنجده متمسكاً بطريقة القدماء من الجاهليين وهؤلاء هم موضوع الدراسة.

المبحث الثاني

مفهوم البادية والبداوة

جاء في لسان العرب: (البَد و والَبادية والَبداوة والُبداة والبِداوة: خلاف الحضر، والنسب إليها بَدَوِيّ نادر، وبِداوِيٍ وهو على القياس، لأنه حينئذ منسوب إلى البداوة؛ قال ابن سيدة: وإنما ذكرته لأنهم لا يعرفون غير بدوي. فإن قلت إن الَبداوى قد يكون منسوباً إلى البدو والبادية فيكون نادراً، قيل: إذا أمكن في الشيء المنسوب أن يكون قياساً وشاذاً كان حمله على القياس أولى، لأن القياس أشبع وأوسع. وبدا القوم بْدواً أي خرجوا إلى باديتهم، مثل قتلا قتلاً. وبدا القوم بداًء أي خرجوا إلى البادية، وقيل للبادية بادية لبروزها وظهورها، وقيل للبرّية بادية لأنها ظاهرة بارزة. وقد بدوت أنا وأبديت غيري. وكل شيء أظهرته فقد أبديته. ويقال بدا لي شيء أي ظهر. وقال الليث: البادية اسم للأرض التي لا حضر فيها، وإذا خرج الناس من الحضر إلى المراعي في الصحارى قيل: قد بدو، والاسم بدو. وقال أبو منصور: البادية خلاف الحاضرة، والحاضرة القوم الذين يحضرون المياه وينزلون عليها في حمراء الغيظ، فإذا برد الزمان ظعنوا عن إعداد المياه وبدوا طلباً للقرب من الكلأ، فالقوم حينئذ بادية بعدما كانوا حاضرة، وهي مباديهم جمع مبدي، وهي المناجع ضد المحاضر، ويقال لهذه المواضع التي يتبدى إليها البادون بلدية أيضاً ...).[1]

البدو: ويقال لهم الأعراب، مفردها بدوي وإعرابي، جاءت تسميتهم هذه من سكناهم للبادية حيث يقضون حياتهم في التنقل والترحال، طلباً للكلأ والماء لإبلهم التي تعتبر العماد الأول لحياتهم في هذه البيئة القاسية.[2]

فالبداوة خلاف الحضر، يقال تبدى أي أقام بها (أي في البداوة) وتبادى تشبه بأهلها والنسبه بِداوي كسخاوي وبدوي محركة وبدا القوم خرجوا إلى البادية.

---

[1] – ابن منظور، أبو الفصل جمال الدين محمد بن مكرم لسان العرب، دار المعارف، د.ت. مادة بدو

[2] –الكمالي، شفيق– الشعر عند البدو، الإرشاد، ط١، بغداد، ١٩٦٤م–ص١٨

وفي تعريف المعنى اللغوي لا يختلف معجم عربي عن معجم عربي آخر في أن مفهوم البداوة يقابل مفهوم الحضارة، وأن كلمة بداوة تضاد كلمة حضارة. وكذلك مشتقاتها فكلمة (بادية) تضاد كلمة (حاضرة)، ومفهوم (بدو) يقابل مفهوم (حضر)، لأن العرب كانوا يقولون في قديم استخداماتهم اللغوية الاجتماعية، وكذلك في جديدها المعاصر، لمن لايزال يعيش في امتداد ذلك الواقع القديم (فلان من أهل البادية وفلان من أهل الحاضرة، وفلان بدوي وفلان حضري).

ونستنتج من التعريفات المعجمية أن البداوة تعني التنقل والترحل في البادية. وإذا حاولنا أن نستخدم المصطلحات الجغرافية الحديثة نقول: البداوة تعني عدم الاستقرار الاستيطاني.

يقول ابن خلدون:[1](البدو هم المقتصرون على الضروري في أحوالهم، العاجزون عما فوقه، وأن الحضر المعتنون بحاجات الترف والكمال في أحوالهم وعوائدهم، ولاشك أن الضروري أقدم من الحاجي والكمالي وسابق عليه، ولأن الضروري أصل والكمالي فرع ناشئ عنه، فالبدو أصل للمدن وسابق عليها... فخشونة البداوة قبل رقة الحضارة .. إن البدو أصل للحضر ومتقدم عليه أما إذا فتشنا أهل مصر من الأمصار وجدنا أولية أكثرهم من أهل البدو الذين بناحية ذلك المصر (وفي قراهموأنهم أيسروا فسكنوا المصر) وعدلوا إلى الدَّعة والترف الذي في الحضر. وذلك يدل على أن أحوال الحضارة ناشئة عن أحوال البداوة وأنها أصل لها..) ونجد أن معظم العلماء والأدباء والمفكرين ذوي الفطرة، أصولهم بدوية، وهم متأثرين ببداوتهم محافظين عليها، مدافعين عن لغتهم الفصيحة حتى لا يشوبها لحن الحاضرة ذات الاختلاط بالأجناس غير العربية، فظهر الشعراء يمجدون حياتهم البدوية ويصورونها وصفاً وفخراً ومدحاً معبِّرين عن حبهم لحياتهم ومنهم من تنقل بين باديته وحاضرته، فكان قريباً من الأمراء والملوك، مادحاً متكسباً بشعره، محافظاً على طريقته الأولى، غير متأثر بما حوله من ترف.

ومما سبق نفهم أن القبائل العربية البادية هي التي لم تستوطن الحواضر والقرى، وهذه القبائل كانت تتفاوت في نظام حياتها، وطرق معيشتها وطبقاتها الاجتماعية، وفي

[1] – ابن خلدون، عبد الرحمن الحضرمي، ، مقدمة ابن خلدون، ط١،دار الفكر، بيروت، ١٤٣٢هـ –ص١٢٧

رواية عن السيدة عائشة رضي الله عنها قالت:[1] (لما قدمنا المدينة نهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نقبل هدية من أعرابي، فجاءت أم سنبلة الأسلمية بلبن، فدخلت به علينا فأبينا نقبله، فنحن على ذلك إلى أن جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه أبوبكر رضي الله عنه فقال: ما هذا؟ فقلت يا رسول الله هذه أم سنبلة أهدت لنا لبناً، وكنت نهيتنا أن نقبل من أحد الأعراب شيئاً. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: خذوها، فإن أسلم ليسوا بأعراب، وهم أهل باديتنا، ونحن أهل قاريتهم* إذا دعوناهم أجابوا، وإن استنصرناهم نصرونا).

المفهوم من النص أن المقصود بالبادية إنما هو ظاهر القرية وما جاورها، حيث كثير من القبائل تسكن قريبة من الحواضر والمدن وتتصل بها.

صفاتهم:

يمتاز البدو بخصال ينفردون بها دون غيرهم من العرب المتحضرين وسكنة الأرياف والقرى. (وهم أصحاب أجسام رشيقة في الغالب الأعم ووجوه أسيلة لفحتها الشمس فأكسبتها سمرة، وجباههم عريضة بارزة وأسنانهم بيضاء كالثلج. هذا والبدوي يمتاز بجلَد غريب وصبر على الشدائد، وذكاء حاد وقناعة لا توصف، يرضى بشظف العيش وحياة محفوفة بالمخاطر، وفي براري قفراء، حرها لاهب وبردها قارس. والبدوي شديد الحرص على عرفه وعاداته التي كان عليها آباؤه وأجداده، باق على الفطرة والبساطة التي كانوا عليها منذ مئات السنين. متمسك بهذه الأخلاق والخصال الصالح منها والطالح. صعب المراس، جرئ حافظ للذمام، كريم مقدام، ثبور لا يقف عند حد ثورته إذا ما جرحت كرامته وانتهكت حرمته، ميَّال إلى حرية لا يحدها حد. والحرية التي يفهمونها هي الحرية الشخصية لا الاجتماعية، والوطن الذي يذكرونه هو مضارب القبيلة ومنازلها وهو بالتالي فخور بنفسه وعشيرته).[2]

---

[1] – ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع أبو عبدالله البصري الزهري –الطبقات الكبرى–تحقيق إحسان عباس–دار صادر – بيروت–ط١ ١٩٦٨م–ج٨–ص٢٩٤

[2] –الكمالي–شعر البدو–ص١٩

مساكنهم:

يسكن البدو في الخيام المصنوعة من شعر الماعز وهم لا يستعملون كلمة خيمة أو فسطاط أو مضرب ولا غيرها مما جاء في اللغة وإنما يستعملون كلمة بيت أو بيت شعر.[١] ولا همّ لهم إلا الغزو والحرب وجوب الصحراء مرتحلين من مكان إلى مكان باحثين عن الغيث والكلأ ومن هنا أطلقوا على ترحالهم اسم النجعة والانتواء.*

ملابسهم:

ملابس البدو عادة بسيطة وتتألف من ثوب أبيض واسع وطويل وفوقه ثوب آخر أوسع وأطول حتى يصل إلى القدم، وكلما كانت أكمام الثوب طويلة دلت على عراقة صاحبها في البداوة. (وإذا وقف البدوي وأرخى يديه إلى جانبيه يكاد ردنا ثوبه يمسان الأرض وكليهما في الغالب يعقدان وراء الظهر).[٢] وقد يلبس البدوي العباءة فوق الثوب، والعباءة مصنوعة من قماش رقيق لماع وتكون مفتوحة من الأمام وأكمامها أقصر من أكمام الثوب ويتحزم فوقها بحزام من الصوف.

أما غطاء الرأس فيتألف من الكوفية وهي قطعة مربعة من النسيج القطني تُطوى وتوضع على الرأس تحت العقال (قضاضة) أو محرمة والعقال يكون أسود اللون وهو عبارة عن ضفيرة من شعر الماعز. والمرأة تلبس ثوباً داخلياً مزركشاً فوقه ثوب أسود أو نيلي طويل الذيل، ومصنوع من القطن ويسمونه "ثوب أسمر" وتتحزم عليه بحزام مصنوع من الصوف الملون ويكون على الأكثر أحمر اللون. وهن لا يستعملن من أدوات التجميل والمساحيق سوي الحناء والكحل، ويتزين ببعض الحلي الرخيصة. وقول المتنبي يفضل البدويات على الحضريات، ويصف حياة البدو وبعض مظاهر مجتمعهم:[٣]

مِنَ الجَآذِرِ في زِيِّ الأَعاريبِ ... حُمرَ الحُلى وَالمَطايا وَالجَلابيبِ
كَم زَورَةٍ لَكَ في الأَعرابِ خافِيَةٍ ... أَدهى وَقَد رَقَدوا مِن زَورَةِ الذيبِ

---

[١] – الكمالي–الشعر عند البدو –ص٣٧

٢ – المصدر السابق نفسه –ص ٣٩

[٣] –المتنبي– أبو الطيب–ديوانه، شرح عبد الرحمن البرقوي، ط٢، دار الكتاب العربي، بيروت ج٢، ١٩٨٦م–ص٩٠٠

* النجعة في اللغة: طلب الكلأ وارتياد مساقط الغيث في مواطنها. الانتواء: نوى القوم بمكان وانتوه بمعنى قصدوه.

زُورُهم وَسوادُ اللَيلِ يَدَعُ لي ... وَأَنذَني وَبَياضُ الصُبحِ يُغري بي
قَد وافَقوا الوَحشَ في سُكنى مَراتِعها ... وَخالَفوها بِتَقويضٍ وَتَطنيبِ
جيرانُها وَهُم شَرُّ الجِوارِ لَها ... وَصَحبُها وَهُم شَرُّ الأَصاحيبِ
فُؤادُ كُلِّ مُحِبٍّ في بُيوتِهِم ... و مالُ كُلِّ أَخيذِ المالِ مَحروبِ
ما أَوجُهُ الحَضَرِ المُستَحسَناتُ بِهِ ... كَأَوجُهِ البَدَوِيّاتِ الرَعابيبِ
حُسنُ الحَضارَةِ مَجلوبٌ بِتَطرِيَةٍ ... وَفي البَداوَةِ حُسنٌ غَيرُ مَجلوبِ
أَينَ المَعيزُ مِنَ الآرامِ ناظِرَةً ... وَغَيرَ ناظِرَةٍ في الحُسنِ وَالطيبِ
أَفدي ظِباءَ فَلاةٍ ما عَرَفنَ بِها ... مَضغَ الكَلامِ وَلا صَبغَ الحَواجيبِ
وما يَزِنَّ مِنَ الحمَّامِ مائِلَةً ... أَوراكُهُنَّ صَقيلاتِ العَراقيبِ

وكثير من هذه التقاليد ما زال سارياً حتى الآن وهو المرغوب عندهم.[1]

حياتهم الدينية:

العقيدة عند البدو بسيطة بعيدة عن التكلف، مبنية على قبول ما كان قريباً من أذهانهم وأحق بالأخذ ما ينسجم مع روحهم ونفسيتهم ويلائم مداركهم وذهنهم. والبدو منهم نصارى ومنهم مؤمنون مسلمون بوحدانية الله عز وجل وبرسالة نبيه الكريم.

ورغم إيمانهم بوحدانية الله وبرسالة الإسلام، يتساهلون كثيراً في الفروض والواجبات كالصلاة والزكاة والحج إلى غير ذلك من فروض الدين، وهذا التساهل ليس عاماً في البدو. والبدوي مهما كان قاسياً فاسم الله ورسوله يتردد على لسانه دائماً، ويؤمن بأن كل شيء من الله. فعقيدة القضاء والقدر هي المتسلطة على كل شيء لدى البدوي، وكلمات :الله أكبر، "والله أعلم"، "ولن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا"، "وأينما تكونوا يدرككم الموت" وأمثالها، هي القواعد التي يعتمد عليها البدوي طول عمره.

والبدو ما زالوا رغم كونهم مسلمين موحدين يحرمون المرأة من الميراث فهي لا ترث في عرفهم فالميراث ينحصر بالذكور فقط دون الإناث، فإذا لم يكن للمتوفي أولاد فأخوته، وإن لم يكن له إخوة فالأعمام، وإذا لم يكن له أعمام ولا أولاد أعمام فالعصبية الأقرب

[1] -الكمالي-شعر البدو-ص٤١

فالأقرب. والقاعدة هي حرمان الإناث من التركة وهذه من الظواهر الجاهلية التي لم تغب عندهم حتى الآن.[1]

حياتهم العقلية:

البدو عامة أميون لا يعرفون من القراءة والكتابة شيئاً إلا ما ندر عند بعض أبناء الشيوخ. فهم باقون على السذاجة والفطرة منذ القديم. لكنهم بصورة عامة أذكياء يدركون أموراً كثيرة بالسليقة وإذا ألقيت عليهم مسألة تعلموها وفهموها حالاً، ولقد أكسبتهم قوة الملاحظة وتجاربهم الكثيرة واضطرار الحاجة طائفة من العلم المبنى على التجربة. فمعارفهم نجدها وليدة لتجاربهم اليومية وملاحظاتهم العامة وحاجتهم في بيئتهم القاسية، فهم على معرفة واسعة بإبلهم وكل ما له علاقة بها، وعلى معرفة تامة بالصحراء وطرقها ومغاورها، فحياة التنقل والارتحال الدائمة دفعتهم لمعرفة دروب الصحراء ومعرفة النجوم للاستدلال بها في أسفارهم وهم على معرفة تامة بالنجوم ومطالعها وأفولها وتأثيرها على الإنسان والحيوان، وأثرها في تقلبات الجو وطول النهار وقصره، وظهور الأعشاب والنباتات وتغيير الفصول.. فظهور نجم معين يفهمون منه حلول الربيع أو الخريف.. وتأثيره على الإنسان والحيوان. وقد دفعهم اعتمادهم على المطر وتعرضهم لأحوال بيئتهم القاسية إلى معرفة أحوال الجو، الأنواء والرياح لعلاقتها بالكلأ والغيث بحيث يعرفون أماكن سقوط الأمطار، وعرفوا البيطرة والخيل والإبل لاتصالها بالحرب ولكونها عماد حياتهم. وقد دفعتهم الحاجة إلى مداواة أنفسهم وحيواناتهم فألموا بعض الإلمام البسيط بمعارف تجريبية في الطب مثل الكي بالنار، واستخلاص العقاقير الطبية من أعشاب ونباتات البادية. وقد مهروا في الفراسة والقيافة إلى حد الإعجاز وقلما يخطئون في استدلالهم بآثار الأقدام.[2]

أما المعارف العقلية العميقة فقد قلت عند العرب بسبب قلة الحكماء والمفكرين، فقد أشارت الكتب إلى حكماء الأمم ومنهم:[3] (حكماء العرب، وهم شرذمة قليلون، لأن أكثر حكمهم فلتات الطبع، وخطرات الفكر، وربما قالوا بالنبوات).

---

[1] – الكمالي–شعر البدو –ص٤٨

[2] – المرجع السابق نفسه–ص٤٧

[3] – الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبى بكر أحمد –المِلَل والنِّحل– نشر مؤسسة الحلبي–ج٢–ص١١٨

أهم مميزات حياتهم

إن البدو من طبيعتهم حب الانتقال، ومن ثم قيل: أنهم لم يقيموا دوراً ثابتة، وإنما جعلوها سهلة في البناء، خفيفة. في الارتحال، لا تحتاج في إقامتها أو اقتلاعها إلى جهد أو عناء. ويعتمدون في حياتهم على الحيوانات، فكانوا مضطرين للبحث عن غذاء لما يملكون من ماشية، ولهذا كانوا يتتبعون مواضع الغيث، ومنابت الكلأ لينزلوا بها حيث يجدون ما يفي حاجتهم وحاجة حيواناتهم من غذاء وماء. ومن ثم كانت حياة البدو بين الإقامة والظعن.

يقول أحمد أمين:[١] (وسكان البادية كانوا يعتمدون في حياتهم على الماشية، ومن ثم كان أول ما يعنيهم هو البحث عن غذاء لهذه الماشية، فكانوا يخرجون بها الأمكنة التي توجد بها الأعشاب والنباتات التي تصلح غذاء لها. وقد يمكثون في هذه الأمكنة المعشبة بعض الوقت، ولكن مهما كان مكثهم فيها، طال أم قصر فإنهم لم يتخذوها مواطن إقامة ثابتة بل كانوا إذا انتهى الموسم عادوا إلى مواطنهم ينتظرون أن يحول الحول وينزل الغيث).

وكانت ثروة البدوي تقدر بما لديه من الحيوانات، خاصة الإبل والخيل، ولذلك كان لهذين النوعين من الحيوانات قيمة عظيمة في نظرهم، خلدوها في أشعارهم. ومن ثم كان العربي يميل إلى الإكثار من ماشيته سواء بالتربية والرعاية، أم بالاستيلاء عليها عن طريق الإغارة.

ولم يكن البدوي يفكر أو ينشغل بمورد ثابت يربطه بمكان لا يبرحه طول حياته، وتستره حيطانه عن نور الفضاء واتساعه. ومن ثم أنف من الانشغال بالزراعة أو الصناعة، فتركوا ذلك لغيرهم ممن كانوا يعتبرونهم أقل من البدو أنفة وكبرياء وعزة، وكان مبدأ البدوي (الذل بالحراث والمهانة بالبقر، والعز بالإبل، والشجاعة بالخيل).[٢]

فطابع البداوة هذا من أهم سمات الرؤية العربية القديمة.فهم يحتقرون الصناعات والحرف بصورة عامة، لذا كان يسمى كل صانع قيناً . ولا يخفي أن القين هو العبد أيضاً،

---

[١] – أحمد أمين، فجر الإسلام، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة العاشرة، ١٩٦٥م–ص٩

[٢] – بلاشير– تاريخ الأدب العربي–ترجمة إبراهيم الكيلاني –دمشق١٩٥٦م–ص٣٣

وهكذا كان أصحاب الصناعات ينالون قسطهم من الاحتقار. يقول جرير في هجاء الفرزدق:[1]

هــو القــين وابــن القــين لاقــين مثلــه .فطْــح المســاحي أو لجــدل الأداهــم*

ويسرى ذلك التيار إلى العصر العباسي الذي وازى فيه التيار البدوي التيار الحضري وجاء في رسائل الجاحظ:[2](أن بعض أولاد قحطان فخر في مجلس الخليفة العباسي الأول السفاح بمناقب قحطان من حمير، وكهلان على ولد نزار، وكان في المجلس خالد بن صفوان وغيره من نزار بن معد، لكنهم التزموا الصمت هيبة للسفاح لأن أخواله من قحطان. فقال السفاح لخالد: ألا تنطقون وقد غمرتكم قحطان بشرفها، وعلت عليكم بقديم مناقبها؟! فقال خالد:[3] (ماذا أقول لقوم ليس فيهم إلا دابغ جلد أو ناسج برد أو سائس قرد؟!)، وهذا دليل على قوة طابع البداوة في الشخصية العربية.

وتعد البادية برغم بساطتها في بعض الأمور، وقسوتها في أمور أخرى منشأ الأنبياء والحكماء، وملجأ الصالحين والزُّهاد والعباد. يروى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (بعث موسى، عليه السلام، وهو راعي غنم وبعث داؤود، عليه السلام، وهو راعي غنمٍ وبعثت وأنا أرعى غنم أهلي بأجياد).[4]

أما عن صفات البدو أنفسهم، فأهمها القرب من الخير وخصاله، والشجاعة والجود والمروءة. وفي هذه المعاني يقول ابن خلدون في مقدمته تحت عنوان (أهل البدو أقرب إلى الخير من الحضر):[5] "إن النفس إذا كانت على الفطرة الأولى كانت مهيأة لقبول ما يرد

---

[1] – جرير، الديوان، شرح إيليا الحاوي، ط١، دار الكتاب اللبناني، بيروت–د.ت–٥٥٨

٢– الجاحظ،عمر بن بحر –رسائل الجاحظ–تحقيق عبد السلام محمد هارون–مكتبة الخانجي القاهرة ١٩٦٤م–ج٢–ص٢٧٣

٣ – ابن منظور الانصاري، محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين الانصاري الرويفعى الإفريقى –مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر–تحقيق روحية النحاس، رياض عبد الحميد مراد، محمد مطيع– دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، دمشق – سوريا–ط١– ١٤٠٢ هـ – ١٩٨٤م.

[4] – النسائي ابو عبد الرحمن احمد بن شعيب الخرساني– السنن الكبرى – تح: حسن عبد المنعم شلبي– الناشر: مؤسسة الرسالة–بيروت ط١–٢٠٠١ ج١٠ ص١٧١ (حديث رقم:١١٢٦٢)

[5] – ابن خلدون –المقدمة–ص١٢٧–١٢٨

* فطح الشيء: جعله عريض. المساحي: جمع مسحاة وهي أداة القشر والجرف. الجدل: أحكام القتل. الأداهم: جمع أدهم وهو القيد

عليها، وينطبع فيها من خير أو شر، فإذا سبق أحد الخُلقين إلى النفس تبعد عن الآخر، ويصعب عليها اكتسابه، فصاحب الخير، إذا سبقت إلى نفسه عادات الخير وحصلت له ملكتها؛ بعد عن الشر، وصعب عليه طريقه. وكذلك صاحب الشر. وأهل الحضر لكثرة ما يعانون من فنون الملاذ وعادات الترف، والإقبال على الدنيا، والعكوف على شهواتهم منها، قد تلوثت نفوسهم بكثير من مذمومات الأخلاق والشر، والبدو وان كانوا مقبلين على الدنيا مثل أهل الحضر، إلا أن هذا الإقبال يكون في المقدار الضروري لافى الترف".

ولفضائل البادية والبدو، فقد كان الخلفاء والأمراء في عصور الحضارة الإسلامية يدفعون بأبنائهم إلى البادية لاكتساب صفات الشجاعة، والفروسية، حتى تشتد سواعدهم وتقوى عزائمهم ويتأهلوا لتحمل المشاق والمسؤليات. كما كان الآباء الذين يريدون لأبنائهم أن يكونوا من الشعراء والخطباء والأدباء والفصحاء، يرسلونهم إلى البادية لتعلم اللغة، ولتستقيم ألسنتهم، وتصفو قرائحهم. ولا غرو في ذلك فتلك سنة أمضاها سيد البلغاء صلى الله عليه وسلم عندما قال:[1] (أنا أفصح العرب بيد أني من قريش ونشأت في بني سعد).

وبالنسبة لبعض الأقوال الشرعية التي وردت في ذم التّعوب– وهو سكنى البادية– فقد أشار إليها العالم الفقيه عبد الرحمن بن خلدون معتبراً أنها ليست دليلاً على مذمة البد اوة التي عبر عنها بالتّعوب، وساق ابن خلدون أدلة كثيرة منقولة ومعقولة تؤكد عدم ذم البداوة والبدو، وأشار إلى أن النهي عن التعرب أو سكنى البادية، ارتبط بوقت معين وظروف خاصة، وهو ظرف وجوب الهجرة على المسلمين وملازمة المدينة المنورة مع النبي صلى الله عليه وسلم، ويقول ابن خلدون:[2] (إن أهل البدو أقرب إلى الخير من أهل الحضر والله يحب المتقين، ولا يعترض على ذلك بما ورد في صحيح البخاري من قول الحجاج لسلمة الأكوع:[3] (قد بلغ أنه خرج إلى سكنى البادية فقال له ارتدت على عقبيك؛ تعربت؟ فقال لا ولكن رسول الله أذن لي في البدو).

---

[1]– البغوي، ابو محمد الحسين بن مسعود– شرح السنة – تح: شعيب الارناؤوط ومحمد زهير الشاويش– المكتب الاسلامي– دمشق –ط٢ –١٩٨٣–ج٤ص٢٠٢. وابن عساكر، الحافظ ابي القاسم علي بن الحسن – تاريخ دمشق–دار الفكر للطباعة والنشر–د.ت.ج٤–ص٧

[2] –ابن خلدون–المقدمة–ص١٢٧

[3] –البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي –الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله (ص) وسننه –تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر– دار طوق النجاة –ط١– ١٤٢٢هـ–ج٩–ص٥٢

فأعلم أن الهجرة فرضت على أهل مكة ليكونوا مع النبي صلى الله عليه وسلم حيث حل من المواطن، ينصرونه ويظاهرونه على أمره، ويحرسونه، ولم تكن واجبة على الأعراب أهل البادية لأن أهل مكة يمسهم من عصبية النبي صلى الله عليه وسلم في المظاهرة والحراسة ما لا يمس غيرهم من بادية الأعراب. فقد كان المهاجرون يستعيذون بالله من التعرب، حيث لا تجب الهجرة، وقال صلى الله عليه وسلم في حديث سعد بن أبي وقاص عند مرضه بمكة:[1] (اللهم امض لأصحابي هجرتهم ولا تردهم على أعقابهم) ومعناها أن يوفقهم لملازمة المدينة وعدم التحول منها.

وكلمة التعرب التي أوردها ابن خلدون في نصه تقودنا إلى تحقيق الكلمة، فالنصوص التاريخية كلها تشير إلى أن كلمة (عربي) لم تستعمل في الشعر العربي أو الآثار السابقة للإسلام، وأن القرآن الكريم هو الذي أبرز هذه الكلمة، وأن الإسلام هو الذي أعطاها دلالتها الحقيقية، إذ أقام وحدة الأمة وكانت العرب قبله قبائل متفرقة لا يجمعها رابط. وكان التعصب العربي أو البدوي والالتزام بالقضايا المصيرية أول عناصر العروبة أو البداوة وركائزها في العصر الجاهلي، فقد كانت القبيلة هي الأساس الذي بنى عليه العرب أو البدو نظامهم الاجتماعي؛ (وكان انتساب العربي إلى قبيلته بمثابة هوية شخصية له وهم يرون أن الانتساب ما نراه نحن اليوم في الانتساب إلى الوطن).[2]

ومن الأمثلة على سمو القبيلة العربية على ما سواها وتضحية العربي أو البدوي في سبيل أبناء قومه ما رأيناه في شعر المقنع الكندي في قوله:[3]

فـــإن أكلـــوا لحمـــي وفـــرت لحـــومهم وإن هـــدموا مجـــدي بنيـــت لهـــم مجـــدا

---

[1] – البخاري، –الجامع المسند الصحيح المختصر–ج٢–ص٨١

[2] – عزام، محمد الالتزام في الشعر العربي دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، ١٩٨٩م.ص٣٥

[3] – القالي،أبو علي إسماعيل بن القاسم بن عيذون بن هارون بن عيسى بن محمد بن سلمان الأمالي –وضعها ورتبها: محمد عبد الجواد الأصمعي– دار الكتب المصرية–ط٢، ١٣٤٤ هـ – ١٩٢٦م.ج١–ص٢٨١

وقد كانت العصبية القبلية ضرورة لا غنى عنها للحفاظ على بقاء القبيلة واستمرار كيانها.

قيمهم الجاهلية:

كان العرب في جاهليتهم عدا سكان المدن بدواً يضربون في الصحارى والقفار. وطور البداوة هذا ميزهم وخصهم بحالات اجتماعية وأخلاقية ومزايا خاصة بهم عرفوا بها على مر الأيام. فالبدوي بسكنه الصحارى المقفرة المحفوفة بالأخطار والمشاق، وبعده عن المدن ونبذه الدور والأسوار، وتفضيله لبيوت الشعر عليها وطبيعة الصحراء القاسية، ولد وفيه مزايا وخصال امتاز بها عن الحضر سكان المدن. منها الشجاعة والعصبية والكرم والوفاء والصدق والأنفة والنجدة.

والحسين بن مطير شاعر من شعراء بوادي الكوفة نجده يردد في شعره هذه المعاني، إذ يقول في مدحه للخليفة المهدي بالكرم:[1]

أضـــحت يمينـــك مـــن جـــود مصـــورة لا بـــل يمينـــك منهـــا صـــور الجـــودُ

فهو يمتدح كرمه الذي يمثل كرم سادة القوم وهو غاية الكرم. كما يفتخر الجاهليون بصفة الكرم الذي يعتبر من أسباب السيادة والزعامة والمجد، مثل قول حاتم الطائي:[2]

يقولـــون لـــي أهلكـــت مالـــك فاقتصـــد ومـــا كنـــت لـــولا مـــا تقولـــون ســـيدا

يقول الحسين بن مطير:[3]

رأت رجـــــلاً أو دى بـــــوافر لحمـــــه طـــلاب المعـــالي واكتســـاب المكـــارم

خفيـــف الحشـــا ضـــربا كـــأن ثيابـــه علـــى قـــاطع مـــن جـــوهر الهنـــد صـــارم

فقلـــــت لهـــــا لا تعجـــــبن فـــــإنني أرى ســـمن الفتيـــان إحـــدى المشـــاتم

---

[1] – الحسين بن مطير –شعره– تحقيق–د. حسين عطوان –مجلة معهد المخطوطات العربية ج١– القاهرة ١٩٦٩م.ص١٥٥

[2] – حاتم الطائي، الديوان– دار صادر –بيروت–١٩٦٣م.ص٤٣

[3] –ابن مطير –الديوان–ص١٨٧

والأبيات على ما فيها من مبالغة، فإنها تصور صفة الكرم، وكيف أن الشاعر يحبذ ما به من ضعف وهزال، ويكره أن يكون سمين الجسم، طلباً للمعالي واكتساب المكارم، وقد سبقه في هذا المعنى عروة بن الورد في قوله:[1]

أقسم جسمي في جسوم كثيرة وأحسو قراح الماء والماء بارد

حضت ظروف الحياة القاسية الجاهليين على التمسك بالقيم الأخلاقية العالية والاقتداء بمن نادوا بها ومثلوها، في تلك الحقبة ذات الطبيعة البدوية الخالصة، حيث المنازعات والحروب والعصبية وشظف العيش وقسوة الطبيعة، مما جعلهم يتغنون بالشجاعة والدفاع عن الحمى، ومجد شعراؤهم الشجاعة والقوة أمثال لبيد وعنترة وغيرهم. وقد تفنن هؤلاء الشعراء في وصف أهوال الحرب وشجاعتهم يقول عنترة:[2]

لما رأيت القوم أقبل جمعهم يتزامرون كررت غير مذمم

يدعون عنترة والرماح كأنها أشطان بئر في لبان الأدهم

ولقد شفي نفسي وأبرأ سقمها قيل الفوارس ويك عنترة أقدم

يقول لبيد مفتخراً بقومه:[3]

وهم السعاة إذا العشيرة أفظعت وهم فوراسها وهم حكامها

ومن الشعراء البدو العباسيين من تغنى أيضا بالشجاعة، وكما أنصف الجاهليون أعداءهم في وصف الحرب عند كليهما فيما سمي (بالمنصفات)؛ فهذا البطين البجلي يقول:[4]

رمينا خمسة ورموا نعيما وكان الموت للفتيان زينا

فلما لم ندع ندبا ورمحا بركنا للكلاكل فارتمينا

---

[1] -عروة بن الورد-الديوان-دار صادر -بيروت١٩٨٢-ص٢٩

[2] - عنترة بن شداد-الديوان -تحقيق ودراسة محمد سعيد مولوي، المكتب الإسلامي، دمشق، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م .-ص٢١٦

[3] - لبيد العامري- الديوان-دار الكتاب العربي بيروت-شرح الطوفي- تحقيق حنا نصر الحتي-٢٠١٢م.ص٢٤١

[4] -الروضان، عبد عون-موسوعة شعراء العصر العباسي-ج١-دار أسامة للنشر-عمان-الردن-د.ت-ص٩١

نرى أنه انتهج نهج المنصفات كما في قول شاعرهم:[1]

فلمـــا لـــم نـــدع قوســـا وســـهما مشـــينا شـــطرهم ومشـــوا إلينـــا

فلمـــــا أن تواقفنـــــا قلـــــيلا انخنـــــا للكلاكـــــل فارتمينـــــا

وكان البدو الجاهليون يحرصون على المثل العالية والخصال النبيلة، ويفخرون بأدائها والوفاء بحقها، فحرصوا على جارهم حرصهم على شرفهم، وقد سُئل إعرابي بدوي عن مبلغ حفاظ قومه فقال:[2] (يدافع الرجل منا عمن استجار به من غير قومه كدفاعه عن نفسه).

وتغنى الشعراء بمروءاتهم العربية البدوية التي تتجلى في نجدة المستغيث والوقوف بجانب البدوي وقت الشدة؛ يقول بشامة مفتخراً:[3]

إنـــي لمـــن معشـــر أفنـــى أوائلهـــم قيـــل الكمـــاة ألا أيـــن المحامونـــا

إن تبتـــدر غايـــة يومـــا لمكرمـــة تلـــق الســـوابق منـــا والمصـــلينا

إنـــا لنـــرخص يـــوم الـــروع أنفســـنا ولـــو نســـام بهـــا فـــي الأمـــن أغلينـــا

ومن المعاني التي تعبِّر عن الوفاء وحماية القبيلة قول ابن مطير:[4]

ولـــيس فتـــى الفتيـــان مـــن راح واغتـــدى لشـــرب صـــبوح أو لشـــرب غبـــوق

ولكـــن فتـــى الفتيـــان مـــن راح واغتـــدى لضـــر عـــدو أو لنفـــع صـــديق

---

[1] – ابن طباطبا، محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم الحسني العلوي– عيار الشعر– تحقيق عبد العزيز بن ناصر المانع– مكتبة الخانجي – القاهرة د.ت–ج١–ص١٠٢

[2] – الحوفي، أحمد محمد– المرأة في الشعر الجاهلي، ط نهضة مصر، ١٩٥٤م.ص٤٦٣

[3] – التبريزي، يحي بن علي الشيباني–شرح ديوان الحماسة –دار القلم بيروت–د.ت.ص٢٥

[4] –ابن مطير– الديوان–ص١٧٧

وقد افتخر البدو الجاهليون بخصال الخير معتزين بنسبتها إليهم، كالعفو عند المقدرة، والحلم والتسامح، ولكنهم مع ذلك يأبون الضيم ويأنفون الذل والهوان، ومنه قول المتلمس الضبعي:[1]

إن الهـــوان حمـــار الأهـــل يعرفـــه والحُـــر ينكـــره والرســـلة الأجـــد

ولا يقـــيم علـــى ضـــيم يُـــراد بـــه إلا الأذلان عيـــرُ الحـــي والوتـــد

وقول الشنفري في لاميته:[2]

أديـــم مطـــال الجـــوع حتـــى أميتـــه وأضـــرب عنـــه الـــذكر صـــفحاً فأذهـــلُ

واســتف تــرب الأرض كــي يــرى لــه علـــّى مـــن الطُـــولِ أمـــرؤ متطـــوّل

كذلك افتخر البدو العباسيون بالمقدرة على العفو والتسامح، ووصفوا صفة الحلم ورزانة العقول بالجبال في وزنها كما في قول ابن هرمة:[3]

ولـــو وزنـــت رضـــوى ببـــبعض حلـــومهم لشـــالت ولـــو زيـــدت عليـــه تضـــارعه

وقد سبقه كعب بن زهير الى هذا المعنى في مدح الأنصار:[4]

تـــزن الجبـــال رزانـــة أحلامهـــم وأكفهـــم خلـــف مـــن الأمطـــار

والعفة وحماية الجار من الأخلاق الرفيعة التي عرفها العرب في جاهليتهم، وظلت ملازمة للشعر في عصوره المختلفة، ومن ذلك قول عنترة:[1]

---

[1] – المتلمس الضبعي–الديوان–معهد الخطوطات العربية– القاهرة ١٩٧٠م.ص١٢

٢ – الشنفرى–الديوان–جمع وتحقيق وشرح الدكتور :إيميل بديع يعقوب–دار الكتاب العربي –بيروت١٩٩٦م.ص٤٨

٣ –ابن هرمة– شعر شعر ابراهيم بن هرمة-تحقيق: محمد نفاع وحسين عطوان-مطبوعات مجمع اللغة العربية –دمشق-د.ت. ص-١٤١.

٤ –كعب بن زهير–الديوان –تحقيق عمر فاروق الطباع –دار الارقم بن ابي الارقم للطباعة–بيروت–د.ت–ص٣٣

أغـض طرفـي مـا بـدت لـي جـارتي حتـــى يـــواري جـــارتي مأواهـــا

ويقول لبيد في الفخر بقومه في حماية الجار:[٢]

وهـــم ربيـــع للمجـــاور فـــيهم والمـــرملات إذا تطـــاول عامهـــا

فالعفة أساساسها الغيرة على العرض، وقد حرص العربي على الافتخار بهذه الفضيلة في العصر العباسي الأول، على ما فيه من لهو ومجون وخلاعة، وشيوع الحانات والديارات وغيرها؛ نجد العفة في الشعر تمثل مكاناً مرموقاً يقول ابن هرمة:[٣]

وإنـــي إذا الجـــار لـــم تحفـــظ محارمـــه ولـــم يقـــل دونـــه هيـــد ولا هـــادِ

لا أخـــذل الجـــار بـــل أحمـــي مباءتـــه ولـــيس جـــاري كعـــش بـــين أعـــواد

ولم تكن هذه الفضائل والمميزات قصراً على فئة من المجتمع البدوي الجاهلي دون فئة، فقد شكلت طابع التوحد بينهم مما دل على أنهم رسخوا لتقاليد بدوية عربية لا تؤثر فيها الحضارات.

وقد سعى الإسلام لينقل الناس جميعاً إلى كثير من الفضائل والأخلاق الحسنة، وعبر عن ذلك المصطفى صلى الله عليه وسلم بقوله:[٤] (إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق).

وهكذا حث الإسلام على كثير من الفضائل وجميل الأخلاق التي سادت شبه الجزيرة العربية وجعلها أساساً لنجاحهم في أداء الرسالة. وهذب البداوة، ونفى عنها العصبية القبلية وأبقى مروءتها وأخلاقها الفاضلة. وفي العصر الأموي ازدادت الخصومات القبلية والعصبية، وتعددت الفرق السياسية والدينية. ويرى شوقي ضيف:[٥] (إن الشعر الذي وجد في العراق لعصر بني أمية، إما شعر سياسي، وهو الذي كان يقال في الخصومة السياسية، وإما شعر قبلي، وهو الذي كان يقال في الخصومة القبلية).

---

١ –عنترة–الديوان–ص٣٠٣

٢ –لبيد–الديوان–ص٢٤١

٣ –ابن هرمة–الديون–ص١٠٤

٤ – ابن حنبل محمد ، المسند، حديث رقم ٨٥٩٥، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٢، ج١٣٩٨،٢هـ.ص٣١٨

٥ – شوقي ضيف– التطور والتجديد في الشعر الأموي– القاهرة: دار المعارف١٩٥٩م.ص٤١

وقد امتدت هذه العصبية القبلية التي اتسم بها العرب البدو خاصة الى العصر العباسي الذي شهد وصول عناصر غير عربية إلى كرسي القيادة والحكم، مما أجج الصراع بين العرب والشعوبيين. وارتفعت بعض الأصوات التي كشفت عن حقدها الدفين على العرب والإسلام وتطاولت على العرب وأمجادهم الطارفة. يقول بشار مفتخراً بأصله الفارسي:[1]

سأخبر فاخر الأعراب عني وعنه حين بارز للفخارِ

أنا ابن الأكرمين أباً وأماً تنازعني المرازبُ من طخارِ

وأبو نواس الذي لمع نجمه في سماء الشعوبية نابذاً العرب وأصولهم البدوية ونمط شعرهم القديم اذ يقول:[2]

دع الأطلال تسفيها الجنوبُ وتبلي عهد جِدتها الخطوبُ

إلى أن يقول:

فأين البدو من إيوان كسرى وأين من الميادين الزروبُ

هو نفسه الذي يبكي الربع ويعتذر له نافياً عن نفسه الخيانة له أو نسيانه في قوله:[3]

أربع البلى إن الخشوع لبادٍ عليك وإني لم أخنك ودادي

فمعذرة مني إليك بأن ترى رهينة أرواح وصوب غوادي

---

[1] – بشار بن برد – الديوان– شرح وتحقيق محمد الطاهر بن عاشور .لجنة التأليف والترجمة–القاهرة–ط٢–١٩٦٧م.ج٣–ص٢٢٩

٢ – أبو نواس، الديوان–تحقيق. أحمد عبد المجيد الغزالي بيروت: دار الكتاب العربي١٩٨٢م.ص١١

٣ – المصدر السابق نفسخ–ص٤٧١

وكان في مواجهة هذا المد الشعوبي بعض الخلفاء، كما تصدى له العلماء والأدباء والشعراء. يقول المتنبي في أصدق تعبير عن مشاعره العربية البدوية الأصيلة:[1]

نحـــن أبنـــاء العـــرِبَ أعـــربُ النـــاس لســـــاناً وأنضـــــر النـــــاس عـــــودا

وكـــــأن الإلـــــه قـــــال لنـــــا فـــــي الحـــــرب كونـــــوا حجـــــارة وحديـــــدا

وهكذا نمت في العصر العباسي بذور الشعور العربي البدوي في وقت ضاعت فيه القيم العربية وانحسرت ظلال الفضيلة. ويرى أبو الطيب المتنبئ أن العرب لن يفلحوا وأمرهم في يد الغرباء الأجانب يقول:[2]

وإنمـــــــا النـــــــاس بـــــــالملوك ومـــا تفلـــح عُـــرب ملوكهـــا عَجَـــمُ

لا أدب عنـــــــدهم ولا حســـــــب ولا عهـــــــود لهـــــــم ولاإنمـــــــمُ

بكـــــل أرض وطئتهـــــا أمـــــم ترعـــــى بعبـــــد كأنهـــــا غَـــــنُم

وهو كما نرى شاعر سرت فيه روح البداوة العربية وامتلأت جوانحه بمعاني الأخلاق البدوية الأصيلة واتسم بسماتها من قوة وصبر وجرأة وحزم وعزة وإباء فقال مفتخراً :[3]

الخيـــل والليـــل والبيـــداء تعرفنـــي والســـيف والـــرمح والقرطـــاس والقلـــمُ

---

[1] – المتنبئ، أبو الطيب–ديوانه، شرح عبد الرحمن البرقوي، ط٢، دار الكتاب العربي، بيروت ج٢، ١٩٨٦م.ص٩٣

[2] –المصدر السابق نفسه–ص٦٣

[3] – السابق نفسه والصفحة نفسها.

ويقول مخبراً بأن رأس الأمر الإباء والعيش الكريم:[1]

عــش عزيــزاً أو مــت وأنــت كــريم بــين طعــن القنــا وخفــق البنــود

وقد سبقه عنترة بن شداد في قوله:[2]

لا تســـقني مـــاء الحيـــاة بذلـــة بــل فاســقني بــالعز كــأس الحنظــل

فتلك هي البادية وبيئتها، ذات الأفق الطلق وسماحة البادية وفضائلها ومميزاتها بكرمها وغيرتها على العرض وحماية الزمار والجوار وعزة نفس أهلها وسمو نفوسهم. ولا يخفى علينا تعلق كثير من الشعراء بالبادية وصفات أهلها ومدحهم بتلك الصفات المحببة إلى نفس كل من اتسم فكره بالثقافة العربية فأبو العلاء المعري يشير إلى عز أهل البادية في قوله:[3]

الُموقِـــدُونَ بنجْـــد نـــارَ بادَيـــة لا َيحضُــرونَ وفَقْــدُ العِــزّ فــي الحَضَــرِ
إذا هَـــى القَطْـــرُ شَـــبَتْها عَبيـــدُهُم تحـــتَ الغَمـــائم للسّـــارين بـــالقُطُرِ

[1] – المتنبئ، أبو الطيب–ديوانه، –ص٨٣

٢– عنترة–الديوان–ص٨٢

٣ –الدميري، كمال الدين– شرح لامية العجم– تحقيق: الدكتور جميل عبد الله عويضة،٢٠٠٨م.ص٧٠

من مظاهر الطبيعة في شعرهم

وصف الحيوان:

عرفت البيئة الصحراوية العربية أنواعاً كثيرة من الحيوانات والطيور، نجدها في أشعارهم، فقاموا بوصفها وبيان أحوالها وظروفها وعاداتها والتأمل في حركاتها وصراعها مع من حولها من أجل الحفاظ على نفسها في ظل الظروف المحيطة ببيئتها الصحراوية.

والبدوي يعتمد على الناقة في كل سبل حياته اعتماداً حتى للترويح عن نفسه وسعادتها، وكان هذا من أسباب الحرب التي دارت بين عبس وذبيان وعرفت بحرب داحس والغبراء وقد أشار إليها زهير بن أبي سلمى في معلقته. وكذلك من الحيوانات الفرس وقد اهتم به البدوي وذكره الشعراء في معظم قصائدهم، وجاء ذكر الحمامة والظبي والليث والغراب والثور الوحشي والصقر والنعامة...الخ.

فكما يصف امرؤ القيس الفرس:[1]

مكـــر مفـــر مقبـــل مـــدبر معـــا كجلمـود صـخر حطـه السـيل مـن عـل

يصف ابن ميادة الظباء:[2]

جـرى بانبتـات الحبـل مـن أم جحـدر ظبـاء وطيـر بـالفراق نُعـوبُ

نظـرت فلـم اعتـف وعافـت فبينـت لهـا الطيـر قبلـي واللبيـب لبيـب*

وهو يذكر الظباء والطير ويوضح من خلال عباراته بعض المعتقدات التي كانت في بيئتهم من التفاؤل بأسماء الطيور وأصواتها وغير ذلك.

---

[1] – امرؤ القيس–الديوان –تحقيق حسن السندوبي–دار الكتب العلمية–بيروت–ط٥–٢٠٠٤م.ص١١٩

[2] – ابن ميادة، شعره– جمعه د. حنا الجمل، – ط١، مجمع اللغة العربية دمشق، ١٩٨٢.ص٦٩

*أعتاف: من العيافة وهي زجر الطير والتفاؤل بأسمائها وأصواتها.

وصف النبات:

وهناك من النباتات ما يتحمل البيئة الصحراوية الجافة شدة حرارة وبرودة وقلة مياه، فينبت طول العام، وبعضها ينبت بعد هطول الأمطار، وقد وردت أسماء كثيرة من الأشجار والنباتات وأصنافها في الشعر العربي في ثنايا القصائد وهي تعبِّر عن البيئة والمكان بمدلولاتها من صفات للممدوحين وذكريات للأحبة، وأحياناً في الفخر وصفات القوة والشدة. فذكروا من الأشجار النخلة ونبات الحنظل والأقحوان وهو نبات طيب الرائحة والعرفج وهو نبات له زهر أصفر ورائحة طيبة تأكله الإبل. والخمخم كذلك هو نبات صحراوي تأكله الإبل. قال عنترة بن شداد:[1]

مـــا راعنـــي إلأ حُولَـــة أَهْلِهـــا وَسْـــط الـــدِّيارِ تســـف حـــبّ الخِمخَـــم*

ومن مدلولات استخدامه لنبات الحنظل:[2]

أثنـــي علـــى بمـــا علمـــت فـــإنني ســـمح مخـــالقتي إذا لـــم أُظلـــم

فـــإذا ظُلمـــت فـــإن ظلمـــي باســـل مـــر مذاقتـــه كطعـــم العلقـــم*

وهم يصفون النبات منذ جاهليتهم، وتختلف مذاهبهم في ذلك، ففي شعر الأعشى كثير من النبات والأزهار، وله في معلقته أبيات يصف فيها روضة معشبة أصابها مطر فانبعثت روائحها الطيبة، فوصف بها الأعشى محبوبته:[3]

مَـا رَوْضَـةٌ مِـنْ رِيَـا ضِ الحَـزْنِ مُعْشِـبَةٌ خَضْـرَاءُ جَـادَ عَلَيْهَـا مُسْـبِلٌ هَطِـلُ

---

[1] – عنترة–الديوان–ص١٨٩

٢ – الأنباري، شرح القصائد السبع، ابن دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٣م. ص٢٠٤

٣– التبريزي، يحي بن علي الشيباني– شرح القصائد العشر– الناشر: عنيت بتصحيحها وضبطها والتعليق عليها للمرة الثانية: إدارة الطباعة المنيريةعام النشر: ١٣٥٢ هـ.٢٩٢

* راعني: أفزعني – الحمولة الإبل التي تحمل عليها.

يُضَاحِكُ الشَّمْسَ مِنْهَا كَوْكَبٌ شَرِقٌ مُؤَزَّرٌ بِعَمِيمِ النَّبْتِ مُكْتَهِلُ
يَوْماً بِأَطْيَبَ مِنْهَا شَرَبَ رَائِحَةٍ وَلاَ بِأَحْسَنَ مِنْهَا إِذْ دَنَا الأُصُلُ

ويقول ابن هرمة في مشهد للظعن، وقد ذكر نبات الخمم في صورة تشبيهية:[1]

ظعن الخليط بلبك المتقسم ورموك عن قوس الجبال باسهم
سلكوا على صفر كأن حمولهم بالرضمتين ذرى سفين عوم
وكأنما اشتملت مواقي عينه يوم الفراق على يبيس الخمخم

ويقول ابن ميادة:[2]

وما روضة خضراء يضربها الندى بها قنة من حنوة وعرار
بأطيب من ريح القرنفل ساطعاً بما التف من درع لها وخمار

فالشاعران ذكرا من النباتات الخمخم وحنوة وعرار.

أما ابن المطير فقد ذكر الاقحوان:[3]

كل يوم بأقحوان جديد تضحك الأرض من بكاء السماء
ذهبُ حيث ما ذهبنا ودُر حيث درنا وفضة في الفضاء

فذكر الشاعر من نبات الربيع الأقحوان، ويقال انه له لون أبيض، فشخص الأرض كأنها فتاة تضحك والسماء تبكي، دلالة على نزول المطر، وأبدع في الوصف والتشبيه بالذهب والدر، حيثما ذهبوا وداروا، وكذلك في صفاء السماء، وتشبيهه بالفضة.

---

[1] -ابن هرمة -شعره-ص١٩٩

[2] -ابن ميادة-شعره-ص١٤٦-١٤٧

[3] -ابن المطير-شعره-ص١٣٧

* العلقم: نبات الحنظل المعروف بطعمه المر.

وصف الليل في الصحراء:

ترتبط الصحراء بكثير من المفردات والليل واحد منها. ففي تلك البيئة له جمال يجعل المتأمل في الكون يسبح لله وعظمته. وقد وصف به الشعراء ممدوحيهم ووصفوا به حروبهم وغبارها بجامع الظلام في كلٍ.

يقول النابغة في صفة الاتساع وقوة السلطان في مدح النعمان:[1]

فإنك كالليل الذي هو مدركي وإن خِلْت أنّ المُنتأ عنك واسعُ

ويقول بشار وفي وصف الجيش:[2]

وجيش كجنح الليل يزحف بالحصى وبالشوك والخطي حمر ثعالبه

فهذا التشبيه من بيئة الشاعر يوضح مفهوم الليل ومدلولاته من كثافة الظلام وسواده وتهيبه.

والليل فيه الهدوء والجمال بنجومه اللامعة وقمره الفضي المنير، وظلامه بما فيه من سحر وغموض، ففيه ترويح للنفس من عناء السفر لمن أضناهم السعي نهاراً، وهو همس السائلين المحبين الذين اشتكوا طوله، وهو جمال لمن يريدون مناجاة الحق عز وجلّ يقول تعالى (فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَاناً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ) (الأنعام:٩٦) وهو غطاء للذين يخفون شرورهم فيه.

والليل عند امرئ القيس يشبه البحر في وحشة أمواجه إذ يقول:[3]

وليل كموج البحر أرخى سدوله على بأنواع الهموم ليبتلي

فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجاز ونآء بكلكل

---

[1] -النابغة الذبياني-الديوان-شرح وتقديم عباس عبد الستار-دار الكتب العلمية-بيروت-ط١ ١٩٨٦م-ص١٧٦

[2] -بشار- الديوان-٣١٨

[3] -امرؤ القيس-الديوان-ص١١٧

ألا أيهـــا الليـــل الطويـــل ألا انجلـــي بصـــبح ومـــا الأصـــباح منـــك بأمثـــل

فيـــا لـــك مـــن ليـــل كـــأن نجومـــه بكـــل مغـــار الفتـــل شـــدت بيـــذبل

ومن العباسيين من وصف الليل كبشار بن برد اذ يقول:[1]

كـــأن مثـــار النقـــع فـــوق رؤوســـنا وأســـيافنا ليـــل تهـــاوى كواكبـــه*

فالشاعر يستخدم تشبيه التمثيل ليصور لنا أحداث المعركة من البيئة المحيطة به وهي الليل والنجوم، وتتضح سعة خيال الشاعر في هذا التصوير مع انه أعمى.

والليل بهدوئه وسكونه نجده باعث للتأمل والتفكير والصمت والسفر بالأنواء. وكل ذلك يولد في نفس البدوي الانطلاق في التعبير والخيال الواسع والبوح بما في السرائر.

يقول أبو فراس:[2]

إذا الليـــل أضـــواني بســـطت يـــد الهـــوي وأذللـــت دمعـــاً مـــن خلائقـــه الكْبـــرُ

ويقول ابن ميادة في وصف الليل والبرق:[3]

أرقت لبرق لا يفتر لامعه بشـــهب الربـــى والليـــل قـــد نـــام هاجعـــه

أرقت له من بعد ما نام صحبتي وأعجبنـــــــي إيماضـــــــه وتتابعـــــــه

فهو يصف تلك الليلة بشهبها التي لا يضعف نورها ولا يخبو، وكذلك لمعان البرق فيها، مما أعجب الشاعر، وجعله مسهداً يترقب المشهد.

---

[1] -بشار-الديوان-ص٢١

[2] -أبو فراس، الديوان رواية أبي عبد الله الحسين بن خالويه، دار صادر، بيروت، ١٩٦٦م.ص١٥٧

[3] -ابن ميادة-شعره-ص١٦٧

*مثار النقع: غبار المعركة.

ويقول ابن هرمة في وصف الليل:[1]

وقــد لاح للســاري الــذي كحــل الســرى علــى أخريــات الليــل فتــق مشــهر

كلــون الحصــان الأنــيط الــبطن قاتمــاً تمايــل عنــه الجــل واللــون أشــقر

فهو يصور الليل في أخرياته مع انفلاق الصبح، كأنه فرس أبيض البطن والصدر، والفرس أشقر، وكلها صور من بيئته المحيطة به، يقول:[2]

وليل كسربال الغراب ادرعته اليك كما خت اليمامة أجدل

فشبه الليل بريش الغراب، وأنه دخل في ظلمته (ادرعته)، فتصوير الليل عند شعراء الجاهلية والعصر العباسي تكررت فيه مثل هذه التشبيهات، الفرس ،الناقة، سربال الغراب، ارخى سدوله، فكلها معاني بدوية مشتركة بينهم.

وصف النجوم:

اهتم العرب بالنجوم اهتماماً بالغاً لأنها الهادي الوحيد ليلاً في الصحراء. يقول الله تعالى: (وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ) (النحل:١٦). ونجد البدوي ينظر إلى الشمس فيعبر عنها بصفات الرفعة والسمو والقوة والخير، ولها خاصية مميزة في الصحراء من ظهور وحرارة ووقاية من البرد.

يقول مروان بن أبي حفصة في مدح معن بن زائد:[3]

ويــوم عســول الآل حــام كأنمــا لظــى شمســه مشــبوب نــار تلهــب*

نصــبنا لــه منــا الوجــوه كأنهــا عصــائب اســمال بهــا تتعصــب

الشاعر هنا يصف لنا عناء الطريق، وحر الشمس، حتى وصلوا إلى معن ابن زائدة في صنعاء.

---

[1] -ابن هرمة-شعره-١٢٣

[2] -المصدر السابق-ص ١٦٦

[3] -مروان بن ابي حفصة- الديوان -دار الكتاب العربي. ط ١. ١٩٩٣م. ص٢٧

* عسول: مضرب، الآل: السراب، مشبوب: مشعر.

وعندما أراد النابغة إسباغ النعمة على النعمان جعله شمساً والملوك كواكب تختفي بظهوره قال:[1]

فإنـــك شـــمس والنجـــوم كواكـــب إذا طلعـت لـم يبـد مـنهن كوكـب

ويقول مروان بن أبي حفصة في مدح الفضل بين يحيي:[2]

مـــا الفضـــل إلا شـــهابٌ لا أفُـــول لـــه عنـــد الحـــروبِ إذا مـــا تأُفـــلُ الشُـــهب

وابن هرمة ذكر هذه النجوم بأسمائها المختلفة، وصورها بتشبيهات من بيئته البدوية إذ يقول:[3]

وبنـــــات نعـــــش يبتـــــدرن كأنهـــــا بقـــــرات رمـــــل خلفهـــــن جـــــآذر
والفرقـــــدين كصـــــاحبين تعاقـــــدا تـــــالله تبـــــرح أو نـــــزوك عتـــــائر
والجـــدي كالرجـــل الـــذي مـــا إن لـــه عضـــد ولـــيس لـــه حليـــف ناصـــر
وتـــــزاور العيـــــوق عـــــن مجدافـــــه كـــالثور يضـــرب حـــين عـــاف البـــاقر
وترفـــــع النســـــران هـــــذا باســـــط يهـــــوى لســـــقطته وهـــــذا كاســـــر
والـــــــنطح يلمـــــــع والبطـــــــين كأنـــــه كـــبش يطـــرده لحتـــف ثـــائر

فكل أسماء النجوم التي ذكرها الشاعر (بنات نعش، الفرقدين، الجدي، العيوق، النسران، النطح والبطين) أسماء جاهلية مستمدة من بيئته البدوية، وصورها تصويراً دقيقاً لمشابهتها من بيئته، شبهها بالثور والكبش والرمل.

[1] –ابن المعتز –طبقات الشعراء–ج١–ص٨٧

[2] – مروان–الديوان–ص٢٥

[3] –ابن هرمة–شعره–ص١١٩

وصف المطر والبرق والرياح:

كان البدوي في الصحراء يبحث عن الماء والكلأ، فالبئر عنده لها أهميتها فهي تجلب سقيه. وإذا ما رأي إنساناً نباتاً أخضر في أرض قاحلة تتهلل أساريره لوجود الحياة في ذلك المكان. فهطول المطر يحمل البشرى لهم بالزراعة والحياة، كذلك جاء ذكرها كثيراً في أشعارهم وما يترتب عليه من خير وبركة ووصفوا ممدوحيهم بها في كرمهم. يقول مروان أبي حفصة في المدح:[1]

قَـــد فـــاضَ عُرفـــك حتـــى مـــا يُعادلـــه غيـــثٌ مُغيـــثٌ ولا بحـــر لـــه حَـــدَب

هنا يشبه ممدوحه بالمطر والبحر لأنهما مصدر خير ورزق، ويذكر أن كرم ممدوحه فاق عطاء المطر والبحر الهائج، ويتضح المبالغة في الوصف.

يقول تعالى (وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) (الأعراف:٥٧).

إذا أجدبت جاعوا ومرضوا ونهبوا، وقد تتبع الشعراء المطر، فوصفوا رعدها وبرقها وسحابها الثقيل منها والخفيف ورياحها الشديدة:[2]

والشاعر البدوي الجاهلي أيضاً يقرن الممدوح بالمطر في العطاء يقول زهير:[3]

فاســـتمطروا الخيـــر مـــن كفيـــه أنهمـــا بســـيبه يتـــرّوى منهمـــا الُبعـــد

أما البرق فهو أحد مظاهر الخريف، ويظهر في هذا الفصل الذي يرقبه الناس، وقد أخذه الشعراء وصوروه وذكروه كثيراً في أشعارهم معبرين به عن البهاء والحسن والسرعة.

---

[1] –مروان–الديوان–ص٢٧

[2] – سويلم، د. أنور–المطر في الشعر الجاهلي، عجمان، دار الجيل، ط١، ١٩٨٧م–ص٦

[3] – زهير، الديوان: شرح الأستاذ على حسن قاعور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٨م–ص٤٣

ويقول مروان بن أبي حفصة في المدح:[1]

مـــا يلمـــع البـــرق إلا حـــنّ مغتـــرب كأنـــه مـــن دواعـــي شـــوقه وصِـــبُ

فكأن البرق يوقظ ذاكرته فيتوق بحرارة إلى حبيبته البعيدة عنه.

ويقول الأعشى:[2]

يـــا مـــن يـــرى عارضـــا قـــد بـــت أرقبـــه كأنمـــا البـــرقُ فـــي حافاتـــه الشُـــعل

وهنا يصور الشاعر البرق والسحاب وكأن السحاب يمثل مشاعلاً من النار أو الضوء، وتوضح هذه الصورة وميض البرق الذي هو نتيجة تلامس السحاب.

والرياح تناولها الشعراء الجاهليون بجمالها وزمانها، وأشاروا إلى قساوتها وبرودتها. يقول في ذلك شاعر المنصفات المفضل النكري.[3]

كـــــأنّ النبـــــل بيـــــنهُم جَـــــرادٌ كفّيـــــه شـــــاميةٌ خريـــــقُ

وهنا يشبه كثافة النبال بين الجيشين بالجراد الذي تصده تلك الرياح القوية الباردة الاتية من منطقة الشام. واقترن ذكر الرياح كثيراً بتخريب الأطلال ودمارها أو أنها تحمل عبق الحبيبة وإحساسها.

الرياح أحد عوامل هطول الأمطار في الصحراء وهي تسوق السحاب، وجاء في القرآن الكريم (وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ)(الحجر:٢٢).

ومن شعر العباسيين في ذكر الرياح قول ابن ميادة في المدح:[4]

مـــا هـــاج قلبـــك مـــن معـــارف دمنـــة بـــالبرق بـــين أصـــالف وفدافـــد

---

[1] -مروان-الديوان-ص٢٨

[2] - الأعشى الكبير، الديوان شرح د. أحمد محمد حسن، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٢. ص ٢٥١

[3] - الأصمعي، أبو سعيد عبد الملك بن قريب بن علي بن أصمع-الأصمعيات -تحقيق: احمد محمد شاكر - عبد السلام محمد هارون- دار المعارف - مصر-ط٧ ١٩٩٣م-ص٢٠١.

[4] -ابن ميادة-شعره-ص١١١

عبـــت بهـــا هُ ـــوج الريـــاح فأصـــبحت قفـــراً تعـــذر غيـــر أورق هامـــد

تجلـــو بأخضـــر مـــن فـــروع أراكـــه حســـن المنصّـــب كالفضـــيض البـــارد

إن المدينـــــة أصـــــبحت معمـــــورة بمتـــوج حلـــو الشـــمائل ماجـــد

كالغيـــث مـــن عـــرض الفـــرات تهـــا فتـــت ســـبل إليـــه بصـــادر أو وارد

نجد الشاعر في مقدمته الطللية، يذكر أثر الرياح على تلك الديار التي أصبحت صحراء ليس فيها من الخضرة والنضارة شيء، ثم ينتقل بعد ذلك للغرض من الأبيات وهو المدح، فيشبه ممدوحه بالمطر في عطائه وأن المدينة معمورة بعطاء ممدوحه.

ومما سبق يتضح أثر البداوة في شعر العباسيين البدو الذي انعكس في تأثرهم بالطبيعة ومظاهرها ومدلولاتها في تشبيهاتهم. وفي لغتهم الشعرية، كما يتضح تمسكهم بالنهج القديم في مقدماتهم الطللية، ووصف الراحلة.

ومما تقدم نخلص إلى أن البادية ارتبطت بالحاضرة ارتباطاً وثيقاً، إذ لا تذكر البادية إلا ومعها الحاضرة، وهي تمد الحاضرة بفيض من العلماء والأدباء، وهي الأصل في الحفاظ على الموروث. كما أن البدوي يتصف بقيم أخلاقية رفيعة وهو دائماً فخور بنفسه وعشيرته. والشعراء البدو صمدوا وحافظواعلى اللغة والنهج القديم أمام المفاهيم الجديدة لحياة العصر وقوة تيار التجديد وشعرائه الذين لم تخل أشعارهم من سمات البداوة. وقد تأثروا بالشعراء الجاهليين تأثيراً كبيراً، وبالصحراء التي تمثل البيئة البدوية خير تمثيل بما فيها من قسوة وجمال.

المبحث الثالث

نهج الأقدمين في شعر العباسيين

يستمد الشعر موضوعاته من المجتمع والبيئة التي يعيشها، ولا شك أن لكل بيئة مظاهر حياتها ولكل مجتمع أسلوبه ونظم تقاليده، ولكل عصر تأثيره في حياة الناس وعاداتهم، لهذا نجد أغراض الشعر تتنوع بتنوع البيئة، وتتطور بتطور المجتمع.

وفي العصر العباسي تنوعت مشاهد الحضارة وتعددت ألوان الثقافة، واتجهت أغراض الشعر وجهة جديدة، واتخذت طابعاً يلائم ما يوحي به العصر من موضوعات. فهناك أغراض قديمة أصبحت لا تلائم أذواقهم، وأغراض جديدة لم تكن معروفة قبل هذا العصر. إلا أن الاتجاه القديم في الشعر كان قوياً ، وقد حافظ على طريقة القدماء في نظم الشعر، ومن أهم أسباب بقائه: تشجيع علماء اللغة له وعدم اعترافهم بما سواه. وكذلك الرغبة في المحافظة على اللغة التي نزل بها القرآن الكريم. وتشجيع الخلفاء له وتخصيص الجوائز الكبرى لهذا النوع. وقد خضع له أغلب الشعراء خاصة في المدح، اقتصار نظم الشعراء البدو عليه.

والاتجاه القديم في الشعر حافظ على بقاء الأغراض الشعرية التقليدية القديمة بشكلها الفني المتوارث، وحاول التمثل بمعانيها ومضامينها التي أخرجتها تصوراتهم لبيئتهم البدوية وحياتهم فيها، فحين حاولوا النظم، لمحوا لوحات شعرية لا سبيل إلى أغفالها أو الإضراب عنها، يدفعهم ميلهم وحبهم لكل ما هو جميل ورائع.

ونحن بصدد الوقوف على تلك الأغراض القديمة التي نهج فيها العباسيون من بدو ومحافظين نهج الشعراء القدامى من الجاهليين، بل وحتى دعاة التجديد أمثال أبو نواس وبشار بن برد ومسلم وغيرهم، وسنتناول نماذج من أشعار القدماء الذين اقتفوا أثرهم ونهجوا نهجهم.

الوصف:

الوصف لغة هو: الكشف، والإظهار. ويقال وصف الثوب الجسم إذا لم يستره. وهو ذكر الشيء بما فيه من الأحوال والهيئات. والشعر كله راجع إلي باب الوصف ألا أقلة.وأحسن الوصف ما نعت به الشيء حتى يكاد يمثله عياناً للسامع.[1] ويمكن القول بإن الوصف أصل تتشعب منه فنون الشعر المختلفة، يقول قدامة:[2] (أغراض الشعر إما إن يكون موضوعها الإنسان الممدوح أو المهجو، أو المرثي أو الموصوف أو المتغزل فيه، وإما أن يكون الشيء الموصوف ذاته، فإذا استثنينا الوصف، وهو موضوع مشترك بين الشعراء، فإن الأغراض الأربعة ليست إلا منحاً للصفات، أو سلباً لها، فالمدح يتطلب صفات ايجابية تسلب في الهجاء وتحول إلي المعني في حال الرثاء، وتحور قاعدتها الأصلية في الحديث عن النساء). إذن فكل غرض من الأغراض هو وصف سلباً كان أو إيجاباً ، وهو من الفنون البارزة التي برع فيها الشعراء الجاهليون، فقد نظروا في الطبيعة الصحراوية؛ ودققوا النظر، ووصفوا كل ما وقعت عليه أعينهم. ووصفوا الطبيعة ممثلة في حيوانها، ورياضها، ونباتها، وديارها، وأطلالها. وتأملوا في أمطارها وسحبها وبرقها ونورها وظلامها، وقد اعتنوا بكل مشاهد البيئة ولم يتركوا شيئاً إلا سجلوه في شعرهم.

وجاء الوصف في الشعر غرضاً أساساً من أغراض النظم في العصر العباسي، فأبو نواس له قصائد مقصورة علي وصف الصيد سميت بالطرديات،وقصائد في وصف الخمر سميت بالخمريات، كذلك المعري له قصائد في وصف الدرع سميت بالدرعيات. فكان من البدهي أن يأتي الوصف في قصائد البدو والمحافظين علي عمود الشعر في العصر العباسي. ويعتبر التشبيه من بين فنون البلاغة أكبر معين للشعراء في الوصف. فموضوع الوصف في الشعر العباسي ظل يجاري مواضيع الوصف القديم في بعض نواحيه،كوصف الإبل، والذئب، والطير، والبقر الوحشي. وذلك لأن للحيوان أثراً كبيراً في حياة الجاهليين، وهو أقرب إلى نفوسهم وعواطفهم. لذلك اعتنوا به عناية خاصة، حتى عرف بعض الشعراء بالإجادة في وصف حيوان واحد، والتدقيق في وصفه، وبرز في

---

[1] – ابن رشيق القيراوانين العمدة، مطبعة السعادة –الطبعة الثانية، ١٩٥٥م. ج٢، ص٢٩٤،

[2]– قدامة بن جعفر، نقد الشعر، ص٢٨.

وصف الخيل أمرؤ القيس، والنابغة في وصف الناقة، وطرفة بن العبد يصفها بطول العنق ويشبهها بالسفينة في بعض أبيات من معلقته:[1]

تلاقي وأحياناً تبين كأنها بنائق غر في قميص مقدد
وأتلع نهاض إذا صعدت به كسكان بوصي بدجلة مصعد

كذلك وصف العباسيون البدو الإبل، كوصف مروان بن أبي حفصة لحال راحلته وهي في طريقها للمدوح بعد أن كانت عاصية، أتت ممدوحه برضى لأنها مرتاحة يقول:[2]

لما أتتك وقد كانت منازعة وافى الرضا بين أيديها بأقياد
لها أحادبث في ذكراك تشغلها عن الرتوع وتنهاها عن الزاد
أمامها منك نور تستضيء به ومن رجائك في أعقابها حادي

وأبو نواس الذي تزعم تيار التجديد في الشعر؛ وصف الناقة كما في قوله:[3]

ولقد تجوب بي الفلاء إذا صام النهار وقالت الصفر
شدنية رعت الحمى فأتت ملء الحزام كأنه قصر

ونجده وصفها بالقوة والسرعة والوفاء كما يفعل القدماء من الجاهليين البدو.

ووصف الجاهليون مظاهر الطبيعة، فعبيد الأبرص يصف السحاب الذي شرع ينهمر بعد النوم. ثم انصرف إلى ذكر البرق الذي يضيء كلمحة من الصبح ويدنو من الأرض حتى يكاد أن يقبض عليه بالراح يقول:[4]

إني أرقت ولم تأرق معي صاحي لمستكفٍ بعيد النوم لواح
يا من لبرقٍ أبيت الليل أرقبه في عارضٍ كمضيء الصبح لماح
دانٍ مسف فويق الأرض هيدبه يكاد يمسكه من قام بالراح*

---

[1] –الزوزني، حسين بن أحمد بن حسين–شرح المعلقات السبع–دار احياء التراث العربي٢٠٠٢م.–ج١–ص٩٥

[2] – مروان –الديون–ص٥٣

[3]– لجنة من أدباء الأقطار العربية، فن الوصف، ، ط١، دار المعارف مصر. د.ت– ص٥٤

[4]– الجبوري، يحي– الشعر الجاهلي وفنونه،دار المعارف، مصر. ص١٣٢

*أرقت: سهرت، صاحي: مرخم، لمستكف: لسحاب مستدير كالفكة. بعيد: تصغير بعد. لواح شديد الغموض، العارض: السحاب

وكذلك شعراء العصر العباسي وصفوا السحاب، فالشاعر البدوي الحسين بن مطير أبدع في وصف سحابة:[1]

مستضـــــحك بلوامـــــع مســـــتعبر بمـــــدامع لم تمرهـــــا الأقـــــذاء
فلـــــه بـــــلا حـــــزن ولا بمســـــرة ضـــــحك يـــــراوح بينـــــه وبكـــــاء
كثـــــرت لكثـــــرة ودقـــــه أطبـــــاؤه فـــــإذا تخلـــــب فاضـــــت الأطبـــــاء

وأبو تمام الذي يميل للتجديد في بعض شعره، نجده يقف على وصف الطبيعة في مقدمة له في المديح. صور الطير، ومشاعره وأحاسيسه في وصف طائرين يرشفان رحيق الهوى؛ بينما هو يتعمقه الحزن، والطبيعة من حوله مكتسية بثياب الربيع المشرقة، والطواويس تومض بألوانها الزاهية قائلاً :[2]

غنـــــى فشـــــاقك طـــــائر غريـــــد لمـــــا تـــــرنم والغصـــــون تميـــــد
ســـــاق علـــــى ســـــاقٍ دعـــــا قمريـــــة فـــــدعت تقاســـــمه الهـــــوى وتصـــــيد
إلفـــــان فـــــي ظـــــل الغصـــــون تألقـــــا والتـــــف بينهمـــــا هـــــوى معقـــــود
يـــــا طـــــائران تمتعـــــا هنيتمـــــا وعمـــــا الصـــــباح فـــــإنني مجهـــــود
ومضـــــت طـــــواويس لعـــــراق فأشـــــرقت أذنـــــاب مشـــــرقة وهـــــن حفـــــود

فالشاعر يحيط بالصورة إحاطة تامة ويصف الحاضر المشاهد من خلال عواطفه وأحاسيسه من غير مبالغة ولا إسراف.

ووصف الخمر لم يبتدعه العباسيون بل نجده منذ العصر الجاهلي، فقد وصفها عمرو بن كلثوم في معلقته:[3]

ألا هبـــــي بصـــــحنك فاصـــــبحينا ولا تبقـــــي خمـــــور الأنـــــدرينا
مشعشـــــعة كـــــأن الحـــــص فيهـــــا إذا مـــــا المـــــاء خالطهـــــا ســـــخينا

[1]- ابن مطير-شعر-ص١٣٤

[2]- أبو تمام ديوانه، شرح شاهين عطية- دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د.ت. ج٢، ص١٤٨.

[3] - الزوزني-شرح المعلقات السبع- ج١-ص٢١٥

وغيره كثير، وفي العصر العباسي كثر محبوها، وأكثروا من وصفها في مقدمات قصائدهم، وكانت محور خصومة بين القدماء والمحدثين. وقد قاد هذا الاتجاه أبو نواس، ونادى به في شعره فقال:[1]

لا يصـــرفنك عـــن قصـــف وإصـــباء مجمـــوع رأي ولا تشـــتيت أهـــواء

واشـــرب ســـلافاً كعـــين الـــديك مذهبـــة مـــن كـــف ســـاقية كـــالريم حـــوراء

ويشبهون الخمر بعين الديك لشدة حمرتها، ومن ذلك قوله مسلم بن الوليد:[2]

ومـــاء كعـــين الـــديك لا يقبـــل الأذى إذا دلجـــت فيـــه الصـــبا خلتـــه يعلـــو

قصـــرنا بـــه بـــاع الشـــمول وقـــد طغـــت فألبســـها حلمـــاً وفـــي حلمـــه جهـــل

وقال يصف مفعولها في شاربها:[3]

وســـلافة صـــهباء بنـــت ســـلافة صـــفراء لمـــا تعصـــر التســـليلا

أختـــان واحـــدة هـــي ابنـــة أختهـــا كلتاهمـــا تـــدع الصـــحيح علـــيلا

فقد أحاط الشعراء البدو والمقلدون في أوصافهم بجميع ظواهر البيئة التي كانوا يعيشون فيها، فهم مهتدون ومقتدون بقدمائهم، وملتفتون إلى تراثهم آخذون منه.

فالوصف كما ذكرنا شمل جمع الأغراض الشعرية عبر العصور الأدبية المختلفة. فالشاعر يصف بيئته وما تتيحه له من وسائل وأدوات تعينه في معاشه. والنماذج الجديدة للوصف في العصر العباسي، لم تخرج عن الطريقة التقليدية في الوصف، وإنما الحداثة كانت في الموضوعات التي تناولها الشعراء بالوصف.

---

[1]- أبو نواس، ديوانه، ص٣٤.

[2]- مسلم بن الوليد، ديوانه، شرح سامي الدهان-دار المعارف-مصر-د.ت. ص٣٩.

[3]- المرجع السابق، ص٥٦.

الغزل

فن الغزل من أهم الفنون، وأبرز الموضوعات، وأعلقها بالقلب، وأقربها إلى طبيعة الإنسان، فقد لقي عناية كبيرة من الشعراء وسجلوا فيه عواطفهم وخواطرهم، تناولوا المرأة، وذكروا محاسنها وصفاتها، وما يفعله الشوق والحنين في نفس الشاعر. وترد في هذا المجال كلمتان مرادفتان للغزل هما: النسيب والتشبيب، وكلها مستعملة في الموضوع نفسه. فبعض كتب اللغة تجعل هاتين الكلمتين بمعنى واحد. (فالغزل هو حديث الفتيان، والجواري، والتغزل تكلف ذلك، والنسيب التغزل والتشبيب مثله).[١]

وفي اللسان:[٢](الغزل حديث الفتيان للفتيات، واللهو مع النساء، ومغازلتهن: محادثتهن ومراودتهن – والتغزل: التكلف لذلك). والنسيب ذكر خلق النساء وأخلاقهن، وبعض الناس لا يعرف الفرق بين النسيب والغزل. والفرق بينهما أن الغزل هو المعنى الذي إذا اعتقده الإنسان في الصبوة إلى النساء نسّب بهم من أجله. فكأن النسيب ذكر الغزل، والغزل المعنى نفسه. والتغزل إنما هو التصابي والاستهتار بمودات النساء.[٣] فالغزل عنده معنى والنسيب تعبير عن هذا المعني.

ومن المظاهر القديمة في الموضوع الغزل العفيف، الذي نشأ في العصر الجاهلي، وازدهر في العصر الأموي، واستمر إلى العصر العباسي.

وكثر النظم في الغزل العفيف عند شعراء بوادي الكوفة من أمثال الحسين بن مطير، الذي يعتبر غزله امتداداً للغزل العذري. فكل ما يتضمنه من عفة، وطهر، وصفاء، ووفاء، وشعور نبيل نحو المرأة يقول:[٤]

ألا حبذا البيت الذي أنت هاجره ... وأنت بتلماح من الطرف ناظر

لأنك من بيت لعيني معجب ... وأملح في عيني من البيت عامر

سد حياءً أن يلج بي الهوى ... وفيك المنى لولا عدو أحاذره

---

[١]- ابن سيده، أبو الحسن على بن إسماعيل- المخصص، ٥٥، ط١ ١٣١٦هـ، المكتب التجاري للطباعة والنشر، بيروت، مطبعة بولاق- ج٤، ص٥٤-

[٢]- ابن منظور، أبو الفصل جمال الدين محمد بن مكرم لسان العرب، دار المعارف، د.ت. مادة غزل.

[٣]- قدامة بن جعفر، نقد الشعر، تحقيق كمال مصطفى، ط٢ القاهرة ١٩٧١م. ص٦٥،

[٤]- ابن مطير -شعره-ص١٦٠

وفيــك حبيــب الــنفس لــو نســتطيعه لمــات الهــوى والشــوق حــين تجــاوره

فهو يجتنب بيت صاحبته حياءً ويغالب نفسه في حبها.

ومن شعراء الغزل العفيف أيضاً آدم بن عبد العزيز*، فهنا يصف غرامه بصاحبته وفتنته بنبل أخلاقها وروعة جمالها يقول:[1]

أحبــــك حبــــين لــــي واحــــد وآخــــر لأنــــك أهــــل لــــذلك
فأمــــا الــــذي هــــو حــــب الطبــــاع فشــــيء خصصــــت بــــه عــــن ســــواك
وأمــــا الــــذي هــــو حــــب الجمــــال فلســــت أرى ذلــــك حتــــى أراك

وعلى الرغم من كثرة الجديد في اتجاهات الشعر في هذا العصر من حيث الأشكال والمضامين، لم تخل قصائده من الابتداء بالغزل، وإن كان البعض من الشعراء استعاض عن ذكر الأطلال والغزل في المحبوبة بالوقوف على القصور والمقدمة الخمرية والعزل بالمذكر. وقد شاع الغزل في مقدمات القصائد في أكثر أغراض الشعر، كنهج الأقدمين حتى عند الشعراء المجددين أمثال بشار بن برد، فقد بدأ قصيدة له بالهجاء، يشكو لأبجر صديقه طول الليل، ويسأله عما إذا كان ثمة أمل من وصال محبوبته. ويطلب إليه ألا يلومه ويتحدث عن حنينه إلي أم أبجر فيقول:[2]

أأبحــــر هــــل لهــــذا الليــــل صــــبح وهــــل بوصــــال مــــن أحببــــت نصــــح
أأبحــــر قــــد هويــــت فــــلا تلمنــــي علــــى كبــــدي مــــن الهجــــران قــــرح
جــــرى دمعــــي فــــأخبر عــــن ضــــميرٍ لجــــاري المســــك دل عليــــه نفــــح

كذلك أبو نواس وقف على الأطلال، وحنّ إلى أهلها في قصيدة له تحدث فيها عن الديار التي عفا رسمها، ولم يبق فيها سوى وحشها، وطيرها، وإبلها الضامرة. ثم انتقل إلى الغزل فقال:[3]

ألــــم تربــــع علــــى الطلــــل الطمــــاس عفــــاه كــــل أســــحم ذي ارتجــــاس

---

[1] الأصفهاني، الأغاني، ج١٥، ص٢٨٩، دار الكتب المصرية ١٩٦٧م.

[2] بشار، ديوانه، شرح حسين حموي، طبعة دار الجيل بيروت ١٩٩٦م. ج٢، ص٤٦٥.

[3] أبو نواس، ديوانه، تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي، دار الكتاب العربي بيروت. ص٥٣٣

*آدم بن عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز، كان في أول أمره خليعاً ماجناً ثم نسك بعد أن عمر ومات على طريقة محمودة. [مهذب الأغاني، ج٧، ص٤٨

إلى أن يقول:

منـــازل مـــن عفيـــرة أو ســـليمي أو الـــدهماء أخـــت بنـــي الحمـــاس
كـــأن معاقـــد الأوضـــاح منهـــا بجيـــد أغـــنِ نـــوّم فـــي الكنـــاس

أما الغزل الحسي وهو الجرئ الفاضح الذي يصف مفاتن المرأة، فقد ورد من قبل في الجاهلية ومن أمثلته قول أمرئ القيس:[1]

وفـــرع يـــزين المـــتن أســـود فـــاحم أثيـــث كقنـــو النخلـــة المتعثكـــل
غـــدائره مستشـــذرات إلـــى العـــلا تضـــل المـــدارى فـــي مثنـــى ومرســـل
وكشـــح لطيـــف كالجـــديل مخصـــر وســـاقٍ كـــأنبوب الســـقي المـــذلل*

فقد وصف الشاعر السمات الجمالية التي أعجبته في محبوبته، فقال إن شعرها الأسود الفاحم يزين قامتها الجميلة، كما وصف رقة خصرها وشبه ساقها بأنبوب السقي.

وجاءت الأوصاف الحسية في العصر العباسي منها تشبيه المحبوبة بالشمس والقمر والغزال يقول العباس بن الأحنف:[2]

ألا أيهـــــا القمـــــر الأزهـــــر تبصـــر بعينيـــك هـــل تبصـــر
تبصـــر شـــبيهك فـــي حســـنه لعلـــك تبلـــغ أو تخبـــر

وأبو العتاهية كغيره من الشعراء المحافظين الذين جرفهم تيار التجديد له أشعار في الغزل، وقد شغف حباً بعتبة وله فيها غزل كثير يقول:[3]

كأنهـــا مـــن حســـنها درة أخرجهـــا الـــيم إلـــى الســـاحل
كـــأن فـــي فيهـــا وفـــي طرفهـــا ســـواحر أقـــبلن مـــن بابـــل
لـــم يبـــق منـــى حبهـــا مـــا خـــلا حشاشـــات فـــي بـــدن ناحـــل
يـــا مـــن رأي قلبـــي قتـــيلاً بكـــى مـــن شـــدة الوجـــد علـــى القاتـــل

أما مسلم بن الوليد فقد كان أقرب الشعراء إلى العذريين وذلك لما في شعره من عفة الطبع وسمو الأخلاق، ومن ذلك قوله:[4]

---

[1]- أمرؤ القيس، ديوانه تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الرابعة، دار المعارف مصر- ص١٦-١٧،.

[2]- العباس بن الأحنف، ديوانه، ص١٣٩، دار صادر بيروت، ١٩٦٥م.

[3]- الأصفهاني، الأغاني، ج٤ ص٥٤.

[4]- مسلم بن الوليد، ديوانه، ص٢٦١.

* السقي: النخل المسقي، فقد شبه ساق المرأة بساق النخلة الذي وصفه بأنه أبيض كالبردى

لمـــا تلاقينـــا قضـــى الليـــل نحبـــه بوجـــه كوجـــه الشـــمس مـــن مائـــة مثـــل
أرينـــا بألحـــاظ العيـــون وبيننـــا عفـــاف وتكـــذيب لمـــا يأســـر المحـــل

ومن مظاهر الجدة في الغزل الحسي، الغزل المكشوف في بيوت القيان، إضافة للغزل بالمذكر، الذي كان له دور كبير في إبراز ما يمكن أن يسمى بأدب الديارات.[1] ومن موضوعات الغزل اللافتة للنظر في هذا العصر الغزل في الجواري السود، وشارك الشاعر أبو الشيص الخزاعي في هذا الغزل، وروي أنه كانت له جارية سوداء اسمها تِبْر كان يعشقها وفيها يقول:[2]

لـــم تنصـــفي يـــا ســـمية الـــذهب تتلـــف نفســـي وأنـــت فـــي لعـــب
يـــا ابنـــة عـــم المســـك الزكـــي ومـــن لـــولاك لـــم يتخـــذ ولـــم يطـــب
ناســـبك المســـك فـــي الســـواد والـــريح فـــأكرم بـــذاك مـــن نســـب

وهذه الظاهرة لم تكن مستحدثة في العصر العباسي بل وجدت عند الجاهليين أيضاً، فنجد الأعشى كان يتغزل في هريرة ويقال أنها كانت جارية سوداء.[3]

ونخلص بملاحظة أن الشعراء البدو اهتموا في غزلهم، بوصف المرأة الحسي، ولكنه وصف محتشم، تزينه عفة وحياء أهل البادية، وكذلك اهتموا بالجانب الروحي أو ما سمي بالغزل المعنوي الذي اشتهر باسم الغزل العذري، وهو نوع من العشق العفيف الذي كان يشيع في البادية ونسب إلى قبيلة بني عذرة.

ومما تقدم ذكره في هذا الغرض من نماذج نجدها تمثل لنا التيار المحافظ والمتمسك بالنهج القديم للقصيدة العربية، وإن تخللتها بعض الحداثة، فيمكن القول بأنها كانت مجاراة لروح العصر الذي أفرز تلك الظواهر السالبة [الغزل بالمذكر – والغزل المكشوف] الذي كان نتاجاً طبيعياً لاختلاط العرب بغيرهم من الشعوب.

---

[1]- بكار– يوسف حسين ، اتجاهات الغزل، دار الاندلس–بيروت لبنان–ط١–د.ت– ص٣٢٢.
[2]- الأصفهاني، الأغاني، ج١٦ ص٤٠٦.
[3]- المرجع السابق، ص٤٠٦.

المدح:

المدح عامة هو ثناء يسبغه الشاعر على ممدوحه. إما اعترافاً بفضل، أو طمعاً في نوال. والمديح معروف منذ نشأة الشعر العربي. وفي أغلب الشعر العالمي القديم.[1]

وقد كان الملوك والأمراء يسعون إلى اكتساب صداقة الشعراء لما لهم من أثر على سياسة قبائلهم من جهة؛ وما لهم من فضل في سير ذكر الممدوح بين الناس، فكانوا يمدحونه بأمهات الفضائل (العقل، والعفة، والعدل، والشجاعة). وكان القاصد للمدح بهذه الأربعة مصيباً وبما سواها مخطئاً .

والمديح منذ الجاهلية يسير في اتجاهات ثلاثة:[2]

- اتجاه قوامه الإعجاب بالفضيلة، وبمن يتحلى بها من الناس. وغايته الإصلاح الاجتماعي.
- أما الاتجاه الثاني فقوامه الشعور القبلي، وخدمة أغراض القبيلة التي ينتمي إليها الشاعر. ويمثل هذا الاتجاه بالذات الشعر السياسي الذي يدافع عن مصالح القبائل، ويحميها من التفكك وينشر مآثرها بين العرب. أما الغاية من هذا الشعر واجب الشاعر نحو قبيلته التي تحميه.
- أما الاتجاه الثالث فهو: اتجاه التكسب بالشعر، وعندما انتشر الفقر بين الشعراء، وصار الشاعر يتكسب بشعره، أصبح النقاد يقولون عنه [أدركته حرفة الأدب]، أي امتهن التكسب بشعره للحصول على المال.

كان الشاعر في العصر الجاهلي وحتى في الإسلامي يرسم في ممدوحه المثالية، والخلق الرفيع الذي تقدره الجماعة، وقد مضى الشعراء العباسيون في مديح الخلفاء والولاة على هذا الرسم، مضيفين إلى هذه المثالية؛ مثالية الحكم، وما ينبغي أن يقوم عليه الأخذ بدستور الشريعة والعدالة. فإذا كان القدماء قد اختاروا الأوزان الطويلة، والموسيقى ذات الإيقاعات القوية، واللغة المختارة. فإن الشعراء المجددين قد قَلَبوا هذا الوضع وأتوا بعكس ما هو مألوف من رِقةُ في الأسلوب، وبساطة في التصوير.

---

[1] إنعام الجندي، دراسات في الأدب العربي، ط٢، ص٥٧، دار الأندلس للطباعة والنشر، بيروت.

[2] أحمد أبو حاقة، ، فن المديح وتطوره في الشعر العربي، ص٧٤، دار الثقافة، بيروت، ط١، ١٩٦٢م.

وفي العصر العباسي سيطرت صفة التكسب على المديح. وأصبح الشاعر العباسي يتغنى بفضائل الممدوح، وعظمته، وسعة سلطانه. واتخذه الملوك نديماً لهم يطربون لقوله، ويخصونه بالمال. ومثال ذلك قول بشار لأمير من آل برمك يعده بالمديح ويطلب منه الكرم فيقول:[1]

فـإن تعطنـي أفـرغ إليـك محامـدي وإن تـأبَ لا يضـرب عليـك سـوادِ
ركـابي علـى حـرفٍ وقلبـي مشـيع وغيـر بـلاد البـاخلين بـلادِ

فهو لن يمدحه إلا بعد أن يغدق عليه عطاياه.

وقد جارى أبو نواس الأقدمين في الشكل، والمحتوى. ولكنه كان يميل إلى الغلو، والمبالغة في كثير من الأحيان، يقول أبو نواس في مدح هارون الرشيد:[2]

وأخِفْـت أهـل الشـرك حتـى أنـه لتخافـك الُظـف التـي لـم تخلـق

وكما يفعل قدامى الشعراء، كان أبو نواس يقف على الأطلال، ويصف الناقة، ثم ينتقل إلى المديح أو أي غرض آخر. يقول:[3]

حـيّ الـديار إذا الزمـان زمـان وإذا الشـباك لنـا حـري ومعـان
يـا حبـذا سـفوان مـن متربـع ولربمـا جمـع الهـوى سـفوان
وإذا مـررت علـى الـديار مسـلماً فلغيـر دار أميمـة الهجـران
إنـا نسـبنا والمناسـب ظنـة حتـى رميـت بنـا وأنـت حصـان
لمـا نزعـت عـن الغوايـة والصـبا وحنـت بـي الشـدنية المـذعان
ملـك تصـور فـي القلـوب مثالـه فكأنـه لـم يخـل منـه مكـان
مـا تنطـوي عنـه القلـوب بفجـرة إلا يكلمـه بهـا اللحظـان
فيظـل لاسـتنبائه وكأنـه عـين علـى مـا غيـب الكتمـان

---

[1]- بشار بن برد، ديوانه، شرح حسين الحموي، ، ط١، دار الجيل بيروت، ١٩٩٦م. ص١٠٩

[2]- أبو نواس، ديوانه، ص٤٠١.

[3]- المرجع السابق، ص٤٠٤.

وهنا نجد أبا نواس الذي دعا إلى نبذ المقدمات الطللية، يحي الديار ويذكر أسماء المرابع في الصحراء [كالشباك، وحرى، ومعان، وسفوان]، كأن الشاعر وضع قول جرير نصب عينيه وسعى إلى تقليده خصوصاً في بيته القائل:[1]

يـــا حبـــذا ســـفوان مـــن متربـــع ولربمـــا جمـــع الهـــوى ســـفوان

فهو شبيه ببيت جرير:[2]

يـــا حبـــذا جبـــل الريـــان مـــن جبـــل وحبـــذا ســـاكن الريـــان مـــن كانـــا

ونجده ينسب لما كان القدماء ينسبون في مطالع شعرهم، ويختار أميمة وهو اسم بدوي خالص. ثم ينتقل من النسيب إلى وصف الناقة فنراها ناقة سريعة ومطيعة. ثم بدأ في وصف الرشيد، وكرم أخلاقه، وشجاعته. ويرى الشاعر أن نعم الممدوح على الناس شبيه بنعم السماء. وقال إن صورته قد انطبعت في القلوب بعطائه المتدفق في كل مكان. ثم يصف لنا مثاليته في الحكم.

أما أبو تمام كغيره من الشعراء، كان من المتكسبين بالشعر. وبظهور التكسب بالشعر أصبحت المدائح تتكون من جزأين منفصلين تمام الانفصال، القصيدة القديمة ثم المديح.[3] يقول أبو تمام مصوراً جود المعتصم وكثرة بذله ونواله:[4]

تعـــود بســـط الكـــف حتـــى لـــو أنـــه ثناهـــا لقـــبض لـــم تطعـــه أناملـــه

ولـــو لـــم يكـــن فـــي كفـــه غيـــر روحـــه لجـــاد بهـــا فليتـــق الله ســـائله

ومن الشعراء الذين لم يخرجوا عن الإطار التقليدي أيضاً مسلم بن الوليد، فله قصيدة في مدح محمد بن هارون منها قوله:[5]

شـــغلي عـــن الـــديار أبكيهـــا وأرثيهـــا إذ خلـــت مـــن حبيـــبٍ لـــي مغانيهـــا

خليفـــة الله قـــد ذلـــت بضـــاعته صـــعر الخـــدود بـــرغم مـــن مراقيهـــا

أحيـــت يـــداه النـــدى والجـــود فانتشـــرا فـــي الأرض طـــراً وجـــالا فـــي نواحيهـــا

---

[1] – أبو نواس، ديوانه، ص٤٠١

[2] –جرير، ديوانه، دار صادر بيروت، ١٩٦٠م.ص ٤٩٣

[3] – ابن مندور، النقد المنهجي عند العرب، ص٣٢، دار نهضة مصر للطبع، الفجالة.

[4] – أبو تمام، ديوانه، ص٢٩.

[5] – مسلم بن الوليد، ديوانه، ص٢١٦.

وهنا نجده يشيد بكرمه وعطائه المتدفق بعد أن مدحه بقوة بأسه؛ المتمثلة في طاعته التي أذل بها المتكبرين من القوم. وتتمثل تقليدية هذه القصيدة في البداية الطللية في المدح.

ومن هؤلاء أيضاً العتابي،* وقد صنف من الشعراء المحافظين ومن شعره في المدح:[1]

ما زلت في غمرات الموت مطرحاً ... قد ضاق عني فسيح الأرض من حيل
ولم تزل دائباً تسع بلطفك لي ... حتى اختلست حياتي من يدي أجلي

وهذا تلميذه منصور النمري في مدحه للرشيد يصف الرحلة والناقة التي أوصلتهم إليه:[2]

أمير المؤمنين إليك خضنا ... غمار الهول من بلدٍ شطير
بخوصٍ كالأهلة خافقات ... تلين على السرى وعلى الهجير
حملنا إليك أعمالاً ثقالاً ... كمثل الصخر والدر النثير
فقد وقف المديح بمنتهاه ... وغايته وصار إلى المصير
إلى من لا يشير إلى سواه ... إذا ذكر الندى كف المشير

ومن الشعراء الذين غلب على شعرهم الطابع البدوي، الحسين بن مطير، وله قصيدة في مدح المهدي، لما أنشدها له أمر له بسبعين ألف درهم وحصان جواد. منها قوله:[3]

إليك أمير المؤمنين تعسفت ... سبأ البيد هوجاء النجاء خبوب
ولو لم يكن قوامها ما تقاذفت ... جبال بها مغبرة وسهوب
فتى هو من غير التخلق ماُجد ... ومن غير تأديب الرجال أديب

فقد بدأها بداية تقليدية، ووصف الرحلة، والصحراء والدابة. ثم انتقل للحديث عن كريم صفات الممدوح وأخلاقه.

---

[1]- الأصفهاني، الأغاني، ج١٣، دار الكتب المصرية، ص١١٩، ١٩٥٠م.

[2]- المرجع السابق، ص١٤٠.

[3]- المرجع السابق، ج١٦، ص٢٢-٢٣.

* كلثوم بن عمرو بن كلثوم الشاعر، شاعر بليغ مطبوع من شعراء الدولة العباسية

ومن التقليديين أيضاً أشجع السلمي* ومن شعره في مدح الرشيد يصفه بالقوة ورهبة العدو منه في حالتي النوم واليقظة، قوله:[1]

وصـــلت يـــداك الســـيف يـــوم تقطعـــت أيـــــدي الرجـــــال وزلـــــت الأقـــــدام

وعلـــى عـــدوك يـــا ابـــن عـــم محمـــدٍ رصـــــدان ضـــــوء الصـــــبح والإظـــــلام

فـــــإذا تنبـــــه رعتـــــه وإذا غفـــــا ســـــلت عليـــــك ســـــيوفك الأحـــــلام

ونجد المديح أهم غرض وصل بشار بالتراث القديم. فحافظ على سننه الموروثة. سواء من حيث جزالة الصياغة، ومتانتها. أو من حيث المنهج الذي سار عليه القدماء. فنجده في وصفه الخلفاء والولاة يخلع عليهم الشيم الرفيعة نفسها التي خلعها الجاهليون، والإسلاميون على ممدوحيهم؛ من الكرم، والمروءة، والشجاعة، والجود، وإباء الضيم، ومن ذلك قوله:[2]

لمســـــت بكفـــــي كفـــــه ابتغـــــي الغنـــــى لـــم أدر أن الجـــود مـــن كفـــه يُعـــدى

فـــلا أنـــا منـــه مـــا أفـــاد ذووا الغنـــى أفـــدت وأعـــــداني فأفنيـــــت مـــــا عنـــــدي

ولم يقتصر المدح عند المحافظين على مدح الملوك، والأمراء، بل تعداه إلى مدح المدن المحببة إلى قلوب ساكنيها. وهو من الفنون الجديدة التي ازدهرت في هذا العصر.

---

[1] الرفاعي، أحمد فريد– عصر المأمون، دار الكتيب المصرية، القاهرة، الطبعة الرابعة، ١٩٢٨م. ص٤٢٠.

[2] بشار، الديوان –شرح السيد محمد بدر العلوي، دار الثقافة بيروت، لبنان، د.ت –ج٢، ص٢٣٦.

*يكنى أبو الوليد، نشأ بالبصرة ويعد من فحول الشعراء، مدح الرشيد وأعجب به فحسن حاله. مهذب الأغاني، ج٨، ص٢١٨

الفخر

الفخر هو التغني بالفضائل والمثل العليا، والتباهي بالسجايا النفسية، والصفات القومية، والزهو بالفعال الطّيبة. والفخر هو مدحك نفسك بالطهارة، والعفاف، والحلم، والحسب، وما يجري مجراها.[١]

الافتخار هو المدح إلا أن الشاعر يخص به نفسه وقومه، وكل ما حسن في المدح حسن في الافتخار. وكل ما قبح في المدح قبح في الافتخار.[٢]

وألذ أحاديث المرء عنده هو حديثه عن نفسه، وخصاله، وفعاله من الشجاعة، والكرم، والمروءة، وحماية الجار، طيب المنبت، وعراقة الأصل، وكثرة المال، والولد، إلى غير ذلك مما يزهو به الإنسان، ويختال به على غيره. وهذا النوع من الفخر يعرف بالفخر الذاتي، ولعل خير من يمثله في العصر الجاهلي، عنترة بن شداد العبسي. فمفاخره الذاتية تمثل نزعة الإنسان العصامي، الذي يؤمن بعمله وما يقوم به من خير، ويتباهى به. حيث قامت مفاخره على التجرد من العصبية بأشكالها. فهو على النقيض من مفاخر الشعراء الجاهليين، ولعل مرد ذلك أنه كان عبداً، وكان فارساً شجاعاً، سخياً بكل ما يملكه، فذاتيته هي محور مفاخرة ونلمس ذلك في قوله:[٣]

أثنـــى علـــى بمـــا علمـــتِ فـــإنني ســـمح مخـــالفتي إذا لـــم أظلـــم
يخبـــرك مـــن شـــهد الوقيعـــة أننـــي أغشـــى الـــوغى وأعـــف عنـــد المغـــنم
وإذا شـــــربت فـــــإنني مســـــتهلك مـــالي وعرضـــي وافـــر لـــم يكلـــم
وإذا صـــحوت فمـــا أقصـــر عنـــد نـــدى وكمـــا علمـــت شـــمائلي وتكرمـــي

ومن الذين انتهجوا هذا النهج من شعراء العصر العباسي، بشار بن برد، فقد افتخر بنفسه في قوله:[٤]

ونبئـــــت قومـــــاً بهـــــم جنـــــة يقولـــون مـــن ذا وكنـــت العلـــم

---

[١] العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل –كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، تحقيق على محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، ص١٣، دار إحياء الكتب، مطبعة الحلبي، ط١، ١٩٥٢م.

[٢] ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر، ص١٤٣.

[٣] عنترة بن شداد، ديوانه ص٣٢، دار عالم الكتب، الرياض،ط٢، ١٩٦٤م.

[٤] – بشار بن برد–الديوان–شرح الشيخ محمد الطاهر بن عاشور–الشركة التونسية للتوزيع–١٩٧٦–ج٤–ص ١٧٨

ألا أيهـــــا الســـــائلي جـــــاهلاً ليعرفنـــــي أنـــــا إلـــــف الكـــــرم
نمـــت فـــي المكـــارم بـــي عـــامر فروعـــي وأصـــلي قـــريش العجـــم
وإنـــــي لأغنـــــي مقـــــام الفتـــــى وأصـــــبي الفتـــــاة فـــــلا تعتصـــــم

فهو يفتخر بمكانته بين قومه، وأنه علم غني عن التعريف. ويصف سائله بالجهل لأنه لم يعرفه. وأن مكارم الأخلاق من أصله وفروعه، فهي موروثة عنده.

ويحسن الفخر إذا كان الشاعر يمتدح بالفضائل النفيسة، والخصال الخلقية بعيداً عن التباهي بالأمور المادية، والقوة الجسدية، أو التفاخر بالأنساب، والأصول والقبائل.[١] لذلك فخير الفخر ما كان تغنياً بالفضائل، وتمدّحاً بالمثل العليا، ولا مجاوزة للمألوف. ولذلك استحسن قول حاتم الطائي لأنه تعبير عن واقع مألوف وحقيقة صادقة:[٢]

أمـــا والـــذي لا يعلـــم المعـــراج غيـــره ويحـــي العظـــام البـــيض وهـــي رمـــيم
لقـــد كنـــت أطـــوى الـــبطن والـــزاد يشـــتهي مخافـــة يومـــاً أن يقـــال لئـــيم

وقد دارت قصائد الفخر حول الشجاعة، والبأس، والنجدة، وإجارة المولى، وإطعام الفقراء، وإكرام الضيف، وبذل المال، والإيثار، ولا يخلو الشعر الجاهلي من بعض القصائد التي بها غلو ومجاوزة لحدود المعقول، ومن ذلك قول عمرو بن كلثوم في معلقته الشهيرة:[٣]

ملأنـــا البـــر حتـــى ضـــاق عنـــا ومـــاء البحـــر نملـــؤه ســـفينا
إذا بلـــغ الفطـــام لنـــا صـــبي تخـــر لـــه الجبـــابر ســـاجدينا

والفضائل التي يفاخر بها الشاعر، وينافس بها غيره من الشعراء، والقبائل هي نفسها التي يمتدح بها الملوك، وعِلْيةِ القوم، شاكراً أو متكسبا.[٤] والفخر من أدلّ فنون الأدب على فطرة الإنسان. فهو ذكر المزايا الحسنة، ووصف الشمائل الكريمة التي يحسها الشاعر في نفسه، أو فيمن يفتخر بهم. وقد افتخر معظم الشعراء إن لم يكونوا كلهم؛ على مر العصور بمقدراتهم الشعرية. ومن الشعراء العباسيين الذين طرقوا هذا الباب أبو تمام وقد قال:[٥]

---

[١] الجبوري، الشعر الجاهلي وفنونه، ص٣٠١.

[٢] حاتم الطائي، ديوانه، شرح وتحقيق عباس إبراهيم، دار الفكر العربي بيروت، ط١، ١٩٩٥م ص٥٣،.

[٣] –الزوزني–شرح المعلقات السبع–ص٢٣٥

[٤] بطرس البستاني، أداب العرب في الجاهلية وصدر الإسلام، مطبعة مارون عبود، بيروت، ١٩٧٩م–ص٥٠–٥١

[٥] أبو تمام، ديوانه، شرح الخطيب التبريزي، ص٣٠٠.

كمـــا علـــم المستشـــعرون بـــأنهم بطـاء عـن الشـعر الـذي أنـا قاصـده

ومن قصائده في الفخر قصائد يصور فيها مكارم قومه ومحامدهم يقول:[1]

أنـا ابـن الـذي استرضـع الجـود فـيهم وســمي فــيهم وهــو كهــل ويــافع
مضـــوا وكـــأن المكرمـــات لـــديهم لكثـــرة مـــا أوصـــوا بهـــن شـــرائع
بهاليـــل لـــو عاينـــت فـــيض أكفهـــم لأيقنـــت أن الـــرزق فـــي الأرض واســـع

ولما كان الفخر بالقوم وصفاتهم من أميز فنون الفخر في العصر الجاهلي، والأموي، والعباسي، فهذا بشار بن برد يفخر بقيس مواليه، وما يذيقونه أعداءهم من بأس شديد:[2]

إذا الملـــك الجبـــار صـــعر خـــده مشـــينا إليـــه بالســـيوف نعاتبـــه
وكنـــا إذا دب العـــدو لســـخطنا وراقبنـــا فـــي ظاهريـــك نراقبـــه
ركبنـــا لـــه جهـــراً بكـــل مثقـــفٍ وأبـــيض تستســـقي الـــدماء مضـــاربه

كذلك قوله يفتخر بقيس بن مضر:[3]

ذا مـــا غضـــبنا غضـــبةً مضـــرية هتكنـــا حجـــاب الشـــمس أو تقطـــر الـــدّما
إذا مـــا أعِنـــا ســـيداً مـــن قبيلـــة ذرى منبـــرٍ صـــلى علينـــا وســـلما

ومن الشعراء البدو ناهض بن ثومة، الذي افتخر بقومه؛ مبيناً مدى شجاعتهم وذكر أنهم هزموا بني نمير بكتائبهم القوية وجعلوا رؤوسهم طعاماً للسباع بين الجبال يقول:[4]

لا هـــل أتـــى كعبـــاً علـــى نـــأي دارهـــم وخـــذلانهم أنـــا ســـررنا بنـــي كعـــب
بمـــلقيـــت منّـــا نميـــر وجمعنـــا غـــداة أتينـــا فـــي كتائبنـــا الغلـــب
نيـــا لـــك يومـــاً بـــالحمي لا نـــرى لـــه شـــبيهاً ومـــا فـــي يـــوم شـــيبان مـــن عتـــب
أقامـــت نميـــر بـــالحمى غيـــر رغبـــة وكـــان الـــذي نالـــت نميـــر مـــن النهـــب
رؤوس أوصـــــال يزايـــــل بينهـــــا ســـباع تـــدلت مـــن أيـــانين هضـــب*
لنـــا دفعـــات فـــي نميـــر تتابعـــت بضـــيم ونكـــب علـــى نكـــب

---

[1] – أبو تمام، ديوانه، ص٣٠٠

[2] بشار بن برد، ديوانه، ج١، ص٣٧٢.

[3] بشارين برد، ديوانه، ص٤٩٧.

[4] – الأصفهاني، الأغاني– دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٥٠م. ج٣، ص٨٥،

ومن الفخر الذاتي عند العباسيين الذي نلمح فيه أثر البيئة البدوية مع جزالة الألفاظ وجمال التشبيه قول ابن هرمة:[1]

إنـــي وتركـــي نـــدى الأكـــرمين ... وقـــدحي بكفـــي زنـــداً شـــحاحاً

كتاركـــــة بيضـــــها بـــــالعراء ... وملبســـة بـــيض أخـــرى جناحـــا*

فهو يفتخر بأن الكرم شيمة متأصلة في ذاته. مؤكداً فكرته بالتشبيه الوارد في البيتين قائلاً: يستحيل أن يترك ندى الأكرمين، وشبه نفسه بأنثى الطائر، فهي لا تترك بيضها لتحضن بيض أخرى.

ومن شعر الفخر الذي جمع بين حسن الشمائل واصطناع الحكمة قول على بن جبلة العكوك*:[2]

وكـــم رميـــة للـــدهر فـــي بـــاب مـــأمن ... جعلـــت مجنـــي دون مكروهـــا صـــبري

أذود منـــى نفســـي جهيـــداً وعفتـــي ... إذا حملـــت غيـــري علـــى المركـــب الـــوعر

فالفخر في العصر العباسي كما رأينا طرق الموضوعات نفسها التي طرقها الشعر في العصور السابقة له. فلم يكن هناك مجال للتجديد إلا في الإكثار من العصبية، والمبالغة، والغلو. وتلك كانت من دواعي العصر لِما كان فيه من تمازج بين مختلف الأجناس والثقافات.

---

[1]-ابن هرمة شعره-ص.٨٧

[2]- مصطفى الشكعة، رحلة الشعر من الأموية إلى العباسية، دار النهضة العربية، بيروت لبنان، ١٩٧٣م -ص٣٤٨

*ايانين: جبلين ويزايل: يفرق، والغلب: الهزيمة

* العكوك هو: على بن جبلة، والعكوك معناه القصير السمين، ولد أعمى وفي رواية أخرى فقد بصره في صباه مما جعله يتجه للدرس ورواية الشعر وحفظه..

الرثاء:

الرثاء هو ذكر مآثر الميت، ووصف الحزن عليه، والجزع لفقده وبيان مكانته، وأثره في مجتمعه الذي يعيش فيه.[1] وهو من أقدم الأغراض الشعرية، فالقدماء كانوا يرثون الخلفاء، والقواد والأصدقاء الذين تربطهم بهم علاقات إنسانية. وقد تبعهم في ذلك أغلب شعراء العصر العباسي.

ومن أنواع الرثاء الندب. وهو البكاء والتفجع على المقربين من نفس الشاعر من أقارب، وأباعد. والتأبين وهو أقرب إلى الثناء منه إلى الحزن الخالص. وهو أشبه بالمديح لما فيه من ذكر محاسن الميت، والعزاء وهو مواساة أهل البيت، وإرسال النصح، والإرشاد لهم.[2]

ولعل خير المراثي وأطرفها هي التي قالها الشعراء في رثاء أنفسهم، عند إحساسهم بدنو أجلهم، أو وقوعهم في شدة، أو أثر، أو مرض. وكثير من الشعراء ذكروا الموت، وناحوا على أنفسهم، وأوصوا أهلهم بما يفعلونه بعد موتهم، وأرسلوا خيالهم في ما سيكون من أمرهم بعد الموت. ومن ذلك قول المتلمس الضبعي:[3]

خليلـــي إمـــا مـــت يومـــاً وزحـــزت منايا كمـــا فيمـــا يزحزحـــه الـــدهر
فمـــرا علـــى قبـــري فقومـــا فســـلما وقـــولا ســـقاك الغيـــث والقطـــر يـــا قبـــر
كـــأن الـــذي غيبـــت لـــم يلـــه ســـاعة مـــن الـــدهر والـــدنيا لهـــاورق نضـــر

فالشاعر يستوقف صاحبيه ويطلب منهما أن يُسلّما على قبره، إذا مرا به يدعوان له بالسقيا.

---

[1] خفاجي، محمد عبد المنعم –الحياة الأدبية في العصر الجاهلي، ط١، د.ت، ص٣١٥.

[2] لجنة من أدباء الأقطار العربية، الرثاء، دار المعارف، مصر، د.ت. ص٦-٥،جرير بن عبد العزة الضبعي، من شعراء العصر الجاهلي.

[3] المتلمس، ديوانه، تحقيق حسن كامل الصيرفي طبعة معهد المخطوطات العربية، ١٩٧٠م. ص٤٠

والرثاء حزن، وبكاء، ولوعة، وتفجع، لذلك كان طبيعياً أن يكثر في هذا الغرض الحديث عن العين، والدموع وغزارتها. وقد سبق إليه من شعراء العصر الجاهلي الشاعر عدي بن زيد* إذ يقول:[1]

ومـــا لـــي ناصـــر إلا نســـاء أرامـــل قـــد هلكـــن مـــن النحيـــب

يحـــدرن الـــدموع علـــى عـــدي كشـــنٍ خانـــه خـــرز الربيـــب*

ومن قصائد الرثاء المشهورة في العصر العباسي قصيدة للحسين بن مطير في رثاء معن بن زايدة. وهي من أشهر، وأقوى قصائد الرثاء في الشعر العربي. حتى أن ممدوحي الشاعر كانو يغارون من هذه القصيدة التي يقول فيها:[2]

ألمـــا علـــى معـــنٍ وقـــولا لقبـــره ســـقتك الغـــوادي مربعـــاً ثـــم مربعـــا

فيـــا قبـــر معـــن أنـــت أول حفـــرةٍ مـــن الأرض خطـــت للســـماحة مضـــجعا

ويـــا قبـــر معـــن كيـــف واريـــت جـــودة وقـــد كـــان منـــه البـــر والبحـــر مترعـــا

بلـــى قـــد وســـعت الجـــود والجـــود ميـــت ولـــو كـــان حيـــاً ضـــقت حتـــى تصـــدعا

فتـــى عـــيش فـــي معروفـــه بعـــد موتـــه كمـــا كـــان بعـــد الســـيل مجـــراه مرتعـــا

نلاحظ أن الشاعر جعل رثاءه من خلال مخاطبة القبر الذي توسده معن، واستطاع أن يستأثر عاطفة السامع من خلال ما تضمنه المعاني.

وهذه المرثية جعلته في مصاف كبار الشعراء ومن ثم فقد عُدّ من بين فحول المحدثين من شعراء العصر العباسي.[3]

وقد أجاد الشاعر مسلم بن الوليد في الرثاء إجادته في المديح. وأحياناً تبدو بعض المراثي عند مسلم عذبة الإيقاع، قليلة الأحزان. وتكون أقرب إلى مدح حي منها إلى بكاء ميت، ومن هذا الضرب مرثيته التي يقول فيها:[4]

---

[1]-عدي بن زيد، ديوانه، تحقيق محمد جبار المعيبد، ص٤٠، بغداد، ١٩٦٥م.

[2]- الأصفهاني، الأغاني، ج١٦، ص٢٤، ط دار الكتب المصرية، د.ت.

[3]- الحموي، ياقوت –معجم الأدباء، ج١٠، ص١٦٧.

[4]- مسلم، ديوانه، ص٢٢٨..

*عدي بن زيد العبادي، من شعراء العصر الجاهلي

* زنده وارى: مثل ضربه في السخاء

* الشن: القربة الصغيرة المخروقة، الريب: من رب الأمر إذا أصلحه

حلـــو الشـــمائل مـــأمون الغوائـــل مـــــأمول النوافـــــل زنـــــده واري
الله ألبســـــه فـــي عـــود مغرســـه ثيـــاب حمـــدٍ نقيـــات مـــن العـــار

ولولا علمنا بأن هذه القصيدة في الرثاء لصنفناها من قصائد المديح. وهذا الأسلوب شبيه بأسلوب الخنساء في رثائها لأخيها:[1]

المجـــد حلتـــه* والجـــود علتـــه والصـــدق حوزتـــه إن قرنـــه هابـــا
خطـــاب محفلـــة فـــراج مظلمـــة إن هـــاب معضـــلة أتـــى لهـــا بابـــا

ومن أجود الأبيات في الرثاء قول مسلم بن الوليد:[2]

أرادوا ليخفـــوا قبـــره عـــن عـــدوه فطيـــب تـــراب القبـــر دل علـــى القبـــر

ومن شعر الرثاء عند بشار قصيدة يرثي فيها صاحباً له يقول فيها:[3]

كـــان لـــي صـــاحباً فـــأودى بـــه الـــدهر وفارقتـــــه عليـــــه الســـــلام
يـــا ابـــن موســـى فقـــد الحبيـــب علـــى العـــين قـــــذاة وفـــــي الفـــــؤاد ســـــقام
كيـــف يصـــفو لـــي النعـــيم وحيـــداً والأخـــلاء فـــي المقـــابر هـــام
نفســـــتهم علـــــى أم المنايـــــا فأنـــــامتهم بعنـــــف فنـــــاموا
لا يقـــيض انســـجام عينـــي علـــيهم إنمـــا غايـــة الحـــزين الســـجام

وفي هذه الأبيات نجده يبكي صاحبه بكاءً شديداً، ويذرف الدمع غزيراً، ولا يحس بنعيم الحياة وهو وحيد وصديقه في القبر. وشبه فقد الحبيب كأنه قذاة في العين، وسقام في القلب.

---

[1]- الخنساء، ديوانها ص٨، دار صادر بيروت، ١٩٦٣م.

[2]- ابن رشيق، العمدة، ج٢، ص١٥٢.

[3]- بشار بن برد، ديوانه، شرح محمد ناصر الدين، ص٥٩٥، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان

* حلته: ثوبه، الجود عليته: أي أنه لا يعتل ويعتذر لطالب معروفه، القرن: النظير في الشجاعة، الخطاب/ الكثير الخطاب، المحفلة: المجلس – المظلمة: الظلم – المعضلة: الأمر الشديد – اتى: دير وهيأ.

*القذاة: الغبار الشديد الذي يقع في العين فيؤذيها، والسقام: المرض، الهام: جمع هامة وهو طائر زعمت العرب أنه يخرج من رأس ولا يزال صائتاً اسقوني حتى يؤهذ للقتيل بثأره. نفستهم: من النفيس أي استكثرهم الموت على وفجعني بهم، بغيض: ينقص – السجام: الدمع الغزير.

أما أبو العتاهية فله شعر في الرثاء منه قصيدته في رثاء على بن ثابت يقول فيها:[1]

ألا مـــن لـــي بأنســـك يـــا أخيـــا ... ومـــن لـــي أن أبثـــك مـــا لـــديا
طوتـــك خطـــوب دهـــرك بعـــد نشـــرٍ ... كـــذلك خطوبـــه نشـــراً وطيـــا
فلـــو نشـــرت قـــواك لـــي المنايـــا ... شـــكوت إليـــك مـــا صـــنعت إليـــا
بكيتـــك يـــا علـــى بـــدمع عـــين ... مـــا أغنـــى البكـــاء عليـــك شـــيّا
كفـــى حزنـــاً بـــدفنك ثـــم إنـــي ... نفضـــت تـــراب قبـــرك مـــن يـــديا
وكانـــت فـــي حياتـــك لـــي عظـــات ... وأنـــت اليـــوم أوعـــظ منـــك حيـــا*

فنرى في رثائه بعض الحكمة ولم يغنه البكاء عن فقده فزاد حزنه عليه، فقد كان قريباً إلى قلبه بعظاته له وهو اليوم يرى العبرة والعظة بموته.

وأبو نواس فقد تناول الرثاء بأنواعه في عزائه للفضل بن الرشيد بقوله:[2]

تعـــزى أبـــي العبـــاس عـــن خيـــر مالـــكٍ ... بـــأكرم حـــي كـــان أو هـــو كـــائن
حـــوادث أيـــام تـــدور صـــروفها ... لهـــن مســـاوٍ مـــرة ومحاســـن
وفـــي الحـــي بالميـــت الـــذي غيـــب الثـــرى ... ولا أنـــت مغبـــون ولا المـــوت غـــابن

ففي عزائه نجده وصف المرثي بأنه خير الناس والمعزي بالكرم، وتحدث عن حوادث الدهر ومساويها ومحاسنها، وواساه وخفف عنه مصابه. وهذا أسلوب تقليدي في العزاء. ومن الأساليب القديمة أيضاً نجده يرثي نفسه بقوله:[3]

دبّ فـــي الّ الســـقام ســـفلاً وعلـــواً ... وارانـــي أمـــوت عضـــواً فعضـــوا
لـــيس مـــن ســـاعة مضـــت لـــي إلا ... نقصـــتني بمـــدها بـــي جـــزوا
ذهبـــت جـــدتي بطاعـــة نفســـي ... وتـــذكرت طاعـــة الله رضـــوا
لهـــف نفســـي علـــى ليـــالٍ وأيـــام ... تمليـــتهن لعبـــا ولهـــوا
قـــد أســـأنا كـــل الإســـاة ... فـــاللهم صـــفحْ عنـــا وغفـــراً وعفـــوا

وهنا يرثي نفسه، وكيف أن الأيام مضت بشبابه ويتحسر على الأيام التي قضاها في اللهو، واللعب. ويطلب العفو، والغفران من الله سبحانه وتعالى. ومن يقرأ هذه الأبيات

---

[1]- شكري، فيصل، أبو العتاهية اخباره وأشعاره، ص٧٧٥، مطبعة جامعة دمشق، ١٩٦٥م.

[2]- أبو نواس ديوانه، تحقيق أحمد عبد المجيد الغزال، ص٨١٥، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان.

[3]- المصدر السابق نفسه- ص٦٩١،

يحس أن الشاعر أصبح قاب قوسين من الموت وهو يبكي شبابه الذي أضاعه في طاعة نفسه. ومن روائع أبي تمام في الرثاء؛ قصيدته في رثاء محمد بن حميد الطوسي، التي عدد فيها مآثره، وبكى عليه بكاء مراً، ولام كل من لم يبك على ذلك الفقد الجلل، موضحاً جزعه عليه. يقول فيها:[1]

كـذا فليجـل الخطـب وليفـدح الأمـر فلـيس لعـين لـم يفـض ماؤهـا عـذر
فتـى كلمـا فاضـت عيـون قبيلـة دمـاً ضـحكت عنـه الأحاديـث والـذكر
فتـى دهـره شـطران فـي مـا ينوبـه ففـي بأسـه شـطر وفـي جـوده شـطر

وفي العزاء يقول معزياً محمد بن سعيد بإبنه:[2]

أمحمـد ابـن سـعيد إن أسـى الفتـى فيهـا دواء الحـر يـوم ظمائـه
أنـت الـذي لا تعـزل الـدنيا إذا مـا النائبـات صـفحن عـن حوبائـه
لـو كـان يغنـي حـازم عـن واعـظٍ كنـت الغنـي بحزمـه وذكائـه

حتى قال:

ن لا يعـزى جازعـاً بحميمـه حـتى يعـزى أولاً بعزائـه*

فهو يمدحه ويخفف عنه، ويرى أن حزمه، وذكاءه يغنيه عن الوعظ. فهو انتهج الطريقة المألوفة في العزاء لدى الشعراء.

ومما أُستحدث في الرثاء في العصر العباسي؛ إخراج الرثاء مخرج الفكاهة، وظهر أيضاً رثاء المدن ورثاء الحيوان، يقول أبو نواس في رثاء كلب له لسعته حية فمات:[3]

يـا بـؤس كلبـي سـيد الكـلاب قـد كـان أغنـاني عـن العقـاب
أصـفر، قـد خـرج بـالملاب كأنمـا يـدهن الزريـاب
فبينمـا نحـن بـه فـي الغـاب إذ بـرزت كالحـة الأنيـاب
فعلقـت عرقوبـه بنـاب ثـم تـرع لـي حقـاً ولـم تحـاب
لا أبـتُ إن أبـتِ بـلا عقـاب حتـى تـذوقي أوجـع العـذاب*

---

[1]- أبو تمام، ديوانه، شرح شاهين عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د.ت. ج٤، ص٨٢.

[2]- المصدر السابق نفسه- ص٣٤٩،

[3]- أبو نواس ديوانه، ص١٠٥، دار صادر.

* الملاب: دهن يدهن به، الزرياب: ماء الذهب. *أسى: جمع أسوة وهي الحالة التي يقتدي بها. الحوباء: النفس، الحازم: الذي يربط الأمر ويحكمه

وطريقتهم هي طريقة من سبقوهم في اختيار الألفاظ، وإظهار الحزن، والتعبير عن إحساسهم إزاء فقدهم الجلل. وإن جددوا في بعض الموضوعات فقد التزموا بالقديم.

الهجاء

الهجاء لغة: هجاه يهجوه هجواً، وهجاه: شتمه بالشعر، وهو خلاف المدح[1]. واصطلاحاً: هو تعبير عن عاطفة السخط، والغضب تجاه شخص تبغضه، أو جماعة تنتقم منها. والشاعر الهاجي يُنفّس بأهاجيه عما يعْتلُج في صدره من ضغائن وأحقاد. ولذلك كان الهجاء سلاحاً من أسلحة القتال؛ يضعف الشاعر به خصومه معنوياً. والهجاء إذا لم يسلب الصفات المستحسنة التي تختص بالنفس ويثبت الصفات المستهجنة، لم يكن مختاراً. والاختيار أن يُنسب المهجو إلى اللؤم، والبخل، والشره، وما أشبه ذلك.[2]

ويقول صاحب الوساطة: (الهجاء أبلغه ما جرى مجرى الهزل والتهافت، وما اعترض بين التصريح والتعريض، وما قربت معانيه، وسهل حفظه، وأسرع علوقه بالقلب، فأما القذف والفحش؛ فسِباب محض، وليس للشاعر فيه إلاّ إقامة الوزن وتصحيح النظم).[3]

ويتميز الهجاء الجاهلي بخصائص أبرزها قِصر قصائد الهجاء. فأكثره مقطوعات وأبيات. فيرون أن قِصر الهجاء وعفته هما أول أسباب رواجه وشهرته[4]. والعفة أمر ظاهر في هذا الشعر، فلم ينحدر إلى الإقذاع، والشتم الواضح والفحش وشعرهم أقرب إلى اللوم، والعتاب، منه إلى البذاءة.

أما نشأة الهجاء فقد كانت مرتبطة بالعصبية القبلية، وما تثيره من حروب وأحقاد. فالشاعر هو لسان القبيلة الذي يدافع عنها ويهجو خصومه. لذلك نجد الهجاء مرتبطاً بالفخر من ناحية؛ وبالمديح من ناحية أخرى. فهو يكون مرتبطاً بالفخر حين يكون هجاءً قبلياً، تحركه الحروب، والرغبة في الانتقام، أو الثأر. ومرتبط بالمديح حين يتوجه الشاعر إلى مديح شخص يرجو نواله. فيعرّض بخصوم ممدوحه وينال منهم، فيقيم هجاءه على

---

[1]- ابن منظور، لسان العرب، مادة هجا، ج١٥، دار صادر بيروت، ط١، ١٩٩٠م- ص٣٥٣،

[2]- أبو هلال العسكري، الصناعتين، ص١٠٤، والعمدة، ج٢، ص١٧١.

[3]- الجرجاني، القاضي عبد العزيز الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق وشرح محمد أبو الفضل إبراهيم ومحمد البجازي، مطبعة عيسي البابي الحلبي، د.ت. ص٢٤

[4]- الجبوري، يحي- الشعر الجاهلي، ص٣٥٨.

عنصر المفاضلة. وهذا أشذ أنواع الهجاء وأقبحه. ولذلك نهى سيدنا عمر بن الخطاب الحطئية عن الهجاء المقذع، وقد سأله الحطيئة: وما المقذع؟ فأجاب:[1] (أن تقول هؤلاء أفضل من هؤلاء وأشرف، وتبني شعراً على مدحِ قوم والذم لمن تعاديهم). وكان الحطيئة قد مدح بغيضاً وهجا الزبرقان بقوله:[2]

مـــا كـــان ذنـــب بغـــيض أن رأى رجـــلاً ذا فاقـــة عـــاش فـــي مســـتوعر شـــاسٍ
جـــاراً لقـــومٍ أطـــالوا هـــون منزلـــه وغـــادروه مقيمـــاً بـــين أرمـــاسِ
ملـــوا قـــراه وهرتـــه كلابهـــم وجرحـــوه بأنيـــابٍ وأضـــراسِ

ومن الهجاء اللاذع قول زهير بن أبي سلمى يهجي آل حصن:[3]

ومـــا أدري وســـوف إخـــال أدري أقـــوم آل حصـــن أم نســـاء؟

ومن العجيب تصنّعه أنه قد تحيّر في الأمر، ولم ينته بعد إلى رأي حاسم: أرجال هم أم نساء؟، ولو رماهم مباشرة بأنهم نساء، لكان هذا مجرد سباب ولضاع تهكمه الساخر، فهو تارة ينظر إليهم فيجدهم في الظاهر رجالاً، لهم هيئة الرجال ولحي الرجال. ولكن ينظر إليهم فيجدهم من الغدر وقلة الوفاء، فيراهم أقرب إلى طبيعة النساء. وقوله: (وسوف إخال أدري) يزيد من لذع الاستهزاء، ومعناه أنه سيواصل البحث عن حقيقة أمرهم.

وفي العصر العباسي ظهر مثل هذا النوع من الهجاء الذي نهى عنه سيدنا عمر بن الخطاب. إضافة للهجاء الساخر. وممن اشتهر في هذا المجال الشاعر بشار بن برد وكان القوم يخافون لسانه فيشكونه إلى بردٍ أبيه فيضربه ضرباً شديداً، فكانت أمه تقول:[4]

[لِم تضرب هذا الصبي الضرير أما ترحمه؟ فيقول: ويلي والله إني لا أرحمه فإنه يتعرض للناس فيشكونه إلّي. فسمعه بشار فقال: يا أبتِ إن هذا الذي يشكونه مني إليك هو قول الشعر. وإني إن ألممت عليه أغنيتك وسائر أهلي فإن شكوني إليك فقل لهم: أليس الله يقول: "ليس على الأعمى حرج" فلما عاودوا شكواه قال لهم برد ما قاله بشار. فانصرفوا

---

[1]- ابن رشيق، العمدة، ج٢، ص١٧٠.

[2]- ابن قتيبة-الشعر والشعراء-ج١-ص٣١٥

[3]- الشعر الجاهلي، منهج في دراسته وتقويمه، محمد النويهي، ج٣ ، الدار القومية للطباعة، القاهرة. ، ص١٤٢

[4]- بشار، ديوانه، شرح محمد ناصرالدين، دارالكتب العلمية، بيروت لبنان. ص٥

* مياس: لقب لدعبل الخزاعي تلميذ مسلم بن الوليد

وهم يقولون:[1] فقهُ بردٍ أغيظ لنا من شعر بشار" ومن ذلك قوله في يعقوب بن داؤود وهو من الموالي، وقد استوزره الخليفة المهدي، وسلمه جميع الأمور، واشتغل باللهو يقول فيه:[2]

يـا أيهـا النـاس قـد ضـاعت خلافـتكم إن الخليفـــة يعقـــوب بـــن داؤود

ضـــاعت خلافـــتكم يـــا قـــوم فالتمســـوا خليفـــة الله بـــين الـــزق والعـــود

وقد نظم مسلم بن الوليد نقائض في الهجاء شبيهة بنقائض جرير والفرزدق. فهجاؤه لا يخرج عن أغراض القدماء ومعانيهم. ومن أشد أنواع الهجاء إيجاعاً، قوله في مياس:[3]

ميـاس قـل لـي أيـن أنـت مـن الـورى لا أنـــت معلـــوم ولا مجهـــول

ـــو كنـــت مجهـــولاً جعلتـــك معلمـــاً و كنـــت معلومـــاً لقالـــك غـــول

أمـــا الهجـــاء فـــدق عرضـــك دونـــه والمـــدح عنـــك مـــا علمـــت جليـــل

فاذهـــب فأنـــت طليـــق عرضـــك إنـــه عـــرض عـــززت بـــه وأنـــت ذليـــل

ومن أنواع الهجاء القديمة الذي أُثبت فيه بخل المهجو؛ إن كان موسراً، أو فقيراً قول مسلم أيضاً:[4]

لـــو أن كنـــز العبـــاد فـــي يـــده لـــم يـــدع الاعتـــذار بالعـــدم

ومن معانيه النادرة والجديدة في الهجاء الساخر قوله في رجل يصف قبح وجهه وخلقه:[5]

قبحـــت منـــاظره فحـــين خبرتـــه حســـنت منـــاظره لقـــبح المخبـــر

وقد كان هّم شعراء الهجاء الانتقاص والنيل من خصومهم، وإضحاك الناس عليهم. ولذلك كان جرير وهو من أعلام الهجاء يوصي بقوله: إذا هجوت فأضحك.[6] ومن ذلك قوله في هوان تغلب:[7]

لـــو أن تغلـــب جمعـــت أحســـابها يـــوم التفاضـــل لـــم تـــزن مثقـــالاً

---

[1] –ديوان بشار– ص ٥

[2]– السابق نفسه– ص٩١.

[3] – مسلم، ديوانه، ص٣٣٤.

[4]– المرجع السابق، ص٢٣٩.

[5]– المرجع السابق، ص٣٢١.

٦– ابن رشيق، العمدة، ج٢، ص١٧٢

٧ –السابق نفسه–ص١٧٠

ويقال أن بشاراً كان يُعد أشد ما هُجي به قول حماد عجرد* الذي عمد إلى عنصر الإضحاك من المهجو:[1]

ويـــــا أقـــــبح مـــــن قـــــردٍ إذا مـــــا عمـــــي القـــــرد

ومن أشعار أبي تمام في الهجاء التي اتبع فيها الطريقة التقليدية قوله يهجو عبد الله الكاتب، ومن الواضح أنه كان مدمناً للخمر، يقول:[2]

لا تفـــتكن علـــى الكـــؤوس بشـــربها فهـــي التـــي باتـــت بعقلـــك تفتـــك

كفيـــك خزيـــاً أن عقلـــك ذاهـــب يبكـــي عليـــك وأن وجهـــك يضـــحك

ومثل هذا النوع يصنف من أنواع الهجاء اللاذع، الذي وجد عند زهير بن أبي سلمى. وقد أظهر نوع آخر من الهجاء الساخر، يعتمد على توليد المعاني واستقصائها. ومثال ذلك قول بشار في رجل ثقيل يسمى أبو سفيان ويصفه بأنه أثقل من الأمانة التي تحملها الأرض يقول فيه:[3]

ربمـــا يثقـــل الجلـــيس وإن كـــان خفيفـــاً فـــي كفـــة الميـــزان

كيـــف لا تحمـــل الأمانـــة أرض حملـــت فوقهـــا أبـــا ســـفيان

أما أبو نواس فقد حاول أن يجدد في الهجاء. ومن أهاجيه نوع تمسك فيه بالأوضاع التقليدية منه قوله في الفضل بن العميد الرقاشي:*[4]

أمـــات الله مـــن جـــوع رقاشـــا فلـــولا الجـــوع مـــا ماتـــت رقـــاش

ولـــو أشـــممت موتـــاهم رغيفـــاً وقـــد ســـكنوا القبـــور إذن لعاشـــوا

وقد حاول شعراء العصر العباسي أن يجددوا في الهجاء. فظهر لون تميز بالسخرية الشديدة، والإيذاء المؤلم. وامتاز الهجاء بأنه أصبح شعر مقطوعات قصيرة، وليست قصائد مطولة كما كان الهجاء في العصور القديمة. وقد شاع الهجاء السياسي

---

[1] بشار، الديوان السيد محمد بد الدين العلوي، ص٢٣١.

٢- أبو تمام، ديوانه، ج٤، ص٤١٠.

[3]- بشار، الديوان السيد محمد بد الدين العلوي، ص٢٣١.

[4] -أبو نواس، ديوانه، تحقيق عبد المجيد الغزالي، ص٥٢٨.

*هو حماد بن يحي يكنى أبا عمر أصله ومنشأه الكوفة، لم يتكسب بصناعة غير الشعر، الأغاني، ج٣، ص٣٢٩

* الرقاشي: نسبة إلى بني رقاس وقيل أنه كان يظهر الغنى وهو فقير والعز وهو ذليل والتكثر وهو قليل، ويظهر بأنه وهو مهين وصار عرضة لأهاجي الشعراء [مختارات البارودي، ص٤٠٣].

كذلك، وكما مدح الشعراء المدن نجدهم هجوها أيضاً، إذن فالاتجاه التقليدي عندهم في الهجاء تمثل في شكل القصيدة، وصفات المهجو من بخل وشره وغيره. والتجديد يتمثل في السخرية والإقذاع بالمهجو.

الحكمة:

الُحكْم في اللغة: العلم والفقه، قال تعالى: (وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً).(مريم:١٢) أي علماً وفقهاً. والحكم العلم والفقه، والقضاء، والعدل. وهو مصدر حكم يحكم. وفي الاصطلاح هي المواعظ، والأمثال التي ينتفع بها الناس. وفي الحديث: (إن من الشعر لحكما). أي إن في الشعر كلاماً نافعاً، يمنع من الجهل، والسفه، وينهي عنهما. وهو بمعنى الُحكْم ومنه الحديث: (الخلافة في قريش والحكم في الأنصار).[١] خصهم بالحكم لأن أكثر فقهاء الصحابة فيهم.[٢]

والحكمة بالجاهلية دليل على رقي عقلية الشعراء، وتفكيرهم، وتأملهم في قضايا الناس، والحياة. وهي ثمرة تجارب كثيرة ومعرفة بالناس وأخلاقهم، والماضين ومصائرهم، وتأمل في سعي الإنسان، وغايته، ونهايته.[٣]

والحكمة الجاهلية جاءت حقائق مجردة تمليها التجربة والفطرة السليمة، ومثلهم العليا السائدة في عصرهم، فقد كانت أفكارهم صدىً لهذه التأملات والمشاهدات، تصاغ في بيت شعر، أو عبارة أنيقة، موجزة، غزيرة المعنى ذات دلالات بعيدة. فيقبل عليها السامعون يروونها، ويحفظونها، وتغدوا أمثالاً تجري على الألسنة على مر العصور. وقد وجدوا لها قبولاً في أنفسهم فكُتب للحكمة بذلك البقاء. وقد جاءت الحكمة عندهم على قدر كبير من النضج العقلي. فقد استفادوا من خبرة الماضين، وأخبار الملوك، والأمم البائدة.

فاضت الحكمة على ألسنة الكثيرين من العرب. ففيهم العقلاء الذين تفجرت ينابيع الحكمة على ألسنتهم. فعرفوا بالحكماء. فالحكمة ضاربة في تاريخ الإنسانية منذ وجد قابيل

---

[١] – ابن حنبل–المسند ، ط٢، ١٩٩٢م، دار سحنون تونس. ج٤، ص١٨٧

[٢] – ابن منظور، لسان العرب، مادة حكم، دار المعارف –ج٢، ص٩٥١.

[٣] – الجبوري، يحي –الشعر الجاهلي، ص٤٠٣.

وهابيل. وأبت حكمة هابيل أن تشهر سيفها في وجه أخيه، لأن رجاحة العقل هضمت سفاهة العقل وطيشه.[1]

ومن الشعراء الجاهليين هنالك من نظر واعتبر بالماضيين ولجأوا إلى الله سبحانه وتعالى كما فعل لبيد وزهير. فحكم لبيد منثورة في قصائد كثيرة تأتي في نعمة روحية صافية في تسبيح الله. وتأتي في العبر والمواعظ عند ذكر الماضين. وتأتي في ثوب حزين حين يبكي ويرثي موتاه. ومن أجود قصائد لبيد في الحكمة؛ قصيدته في رثاء أخيه أربد، يسجل فيها تجاربه وخبراته في حكمه يصوغها، وأمثال يضربها، على شاكلة قوله:[2]

بلينا وما تبلى النجوم الطوالع ... وتبقى الجبال بعدنا والمصانع
قد كنت في أكناف جارٍ مصنةٍ ... وفارقني جار بأربد نافع
فلا جزع إن فرق الدهر بيننا ... وكل فتى يوماً به الدهر فاجع
فلا أنا يأتيني طريق بفرحة ... ولا أنا مما أحدث الدهر جازع

فهو ينظر إلى نفسه، وإلى الناس كلهم ابناء فناء صائرون إلى بِلى. وتبقى حركة الزمان خالدة مستمرة. فالنجوم طوالع، والجبال والبيوت ثابتة، وأن هؤلاء الذين أفناهم الدهر، أخوه الذي يحبه، وهو مع ذلك لا ييأس ولا يجزع على فراق أحبته ما دامت هذه سنة الحياة، وما سلم من الدهر أحد.

فهذه الأبيات للشاعر الجاهلي تنم عن نضوج عقل وتأمل وخبرة في الحياة، قد أفاد منها شعراء العصور التي تلتهم، ففي العصر العباسي جاءت الحكمة في ثنايا القصائد، ولم تفرد لها قصائد خاصة بها. ونادراً ما نجد قصيدة أفردت للحكمة.

وشبيه بشعر الحكمة شعر الزهد. فهو يقوم على ذم الحياة الدنيا، والتنفير منها، والتذكير بالموت، والحث على العمل الصالح. وكان يمثل هذا الشعر حركة مضادة لبعض مظاهر المجون والزندقة التي شاعت في العصر العباسي. وحمل لواءها أبو العتاهية وجعلها مذهباً له، ومن أشعاره فيها قوله:[3]

الموت حق والدار فانية ... وكل نفس تجزى بما كسبت

---

[1] حسن، محمد صادق –المعاني المتجددة في الشعر الجاهلي، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٩٤م– ص٤٠٧.

[2] لبيد بن ربيعة العامري، ديوانه، دار صادر بيروت، ١٩٦٦م. ص١٦٨–١٧٠

[3] أبو العتاهية، ديوانه، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٦٤م. ص٧١،

مـــا كـــل ذي حاجـــة بمـــدركها كـــم مـــن يـــد لا تنـــال مـــا طلبـــت
مـــن لـــم يســـعه الكفـــاف مقتنعـــاً ضـــاقت عليـــه الـــدنيا بمـــا رحبـــت

فالحكمة المستمدة من تجارب الحياة واضحة في الأبيات. فليس كل ما يتمناه المرء يدركه، والقناعة كنز لا يفنى. وهذه هي الطريقة التقليدية في بث الحكم والمواعظ.

وقد تجئ الحكمة على لسان شاعر عُرف بالمجون، واللهو، فرغم أنها تعبير عكسي عن سلوكه في الحياة؛ وتكون صادقة غالباً، لأنها وليدة تجربة قاسية ردته إلى الصواب.[١] مثال ذلك الحِكَم التي نجدها في أشعار أبي نواس يقول:[٢]

ـــا رب قـــد أحســـنت عـــوداً وبـــدأة إلـــى فلـــم يـــنهض بإحســـانك الشـــكر
فمـــن كـــان ذا عـــذر لـــديك وحجـــة فعـــذري إقـــراري بـــأن لـــيس لـــي عـــذر

ويقول ناصحا:[٣]

رى كـــل حـــي هالكـــاً وابـــن هالـــك وذا نســـب فـــي الهـــالكين عريـــق
إذا امـــتحن الـــدنيا لبيـــب تكشـــفت لـــه عـــن عـــدو فـــي ثيـــاب صـــديق

ويقول أبو تمام في الوعظ والتزهيد:[٤]

تحـــاول شـــيئاً قـــد تـــولى وودعـــا وهيهـــات منـــه أن يـــؤوب ويرجعـــا
خشـــنت علـــى التأديـــب فهمـــاً ومنطقـــاً لنـــت علـــى الأيـــام ليتـــاً وأخـــدعا*
فأقبلـــت الأيـــام ترتـــاد مصـــرعا لجســـمك فارتـــد إذ تيقنـــت مضـــجعا

وفي حديثه عن الدينا يقول:[٥]

أتأمـــل فـــي الـــدنيا تجـــد وتعمـــر وأنـــت غـــداً فيهـــا تمـــوت وتقبـــر
تلقـــح آمـــالاً وترجـــو نتاجهـــا وعمـــرك ممـــا قـــد ترجيـــه أقصـــر
وهـــذا صـــباح اليـــوم ينعـــاك ضـــوؤه وليلتـــه تنعـــاك إن كنـــت تشـــعر

---

[١] العماري، على محمد– الصراع الأدبي بين القديم والجديد، القاهرة، دار الكتب الحديثة ص١٣٤،.

[٢] أبو نواس، ديوانه، دار صادر بيروت. ص٣٤٢

[٣] المرجع السابق، ص٤٦٥.

[٤] أبو تمام، ديوانه، شرح شاهين عطية، ص٤٩٣.

[٥] محمود سامي البارودي، مختارات البارودي، المطبعة الجديدة، القاهرة، ١٩٠٦م. ج١، ص٤٦٩

* الليت: صفحة العنق، والأخدع: عرق في العنق، وترتاد: تطلب

ونجده كغيره من شعراء العصور السابقة يتأمل حركة الحياة، ويؤمن بالفناء ويرى أن عمره أقصر من آماله. فحكمته ناتجة عن وعي وإدراك للحياة، ومصيره المجهول فيها. وتجربته التي أفادها منها.

وبشار بن برد رغم لهوه ومجونه نجده يتذكر الموت قائلاً :[1]

بـــدا لـــي أن الـــدهر يقـــدح فـــي الصـــفا ... وأن بقـــــائي مـــــا حييـــــت قليـــــل

نعـــش خائفـــاً للمـــوت أو غيـــر خـــائفٍ ... علـــى كـــل نفـــس للحمـــام دليـــل

خليلـــك مـــا قـــدمت مـــن عمـــل التقـــى ... ولـــــيس لأيـــــام المنـــــون خليـــــل

فهو يرى قرب الموت منه. ويأتي بحكمة هي أن ليس للموت خليل، إلا العمل الصالح للإنسان. وكغيره من شعراء عصره لم يأت بالجديد في الحكمة. بل جاءت حكمة تقليدية وليدة النجارب العامة. ولله أبيات في الحكمة، والموعظة يقول فيها:[2]

قســـت الســـؤال فكـــان أعظـــم قيمـــة ... مـــن كـــل عارفـــة جـــرت بســـؤال

فـــإذا ابتليـــت ببـــذل وجهـــك ســـائلاً ... فأبذلـــــــه للمتكـــــــرم المفضـــــــال

وإذا خشـــيت تعـــذراً فـــي بلـــدة ... فاشـــدد يـــديك بعاجـــل الترحـــال

واصـــبر علـــى غيـــر الزمـــان فإنهـــا ... فـــرج الشـــدائد مثـــل حـــل عقـــال

ومن الذين بثوا الحكمة في أشعارهم من شعراء العصر العباسي مسلم بن الوليد. فهو يرى تقلب حال الدنيا، وعدم ثباتها على حال واحد يقول:[3]

كـــم رأينـــا مـــن ملـــوك ســـوقة ... ورأينـــا ســـوقة قـــد ملكـــوا

قلـــب الـــدهر علـــيهم وركـــاً ... فاســـتداروا حيـــث دار الفلـــك

ويعتبر صالح بن عبد القدوس من أشهر شعراء الحكمة في هذا العصر. رغم أنه كان متهماً بالزندقة في زمن الخليفة المهدي.[4] ويكاد يذهب شعر ابن عبد القدوس كله في تقرير محاسن الأخلاق والشيم، ناظراً فيها نظرة تجريدية، دفعته إلى تعقب حكمة العرب

---

[1]- بشار بن برد–ديوانه–شرح السيد محمد بدر الدين العلوي – ص١٨٨.

[2]- المرجع السابق، ص١٨٨.

[3]- مسلم بن الوليد، ديوانه، ص٢٩٨.

[4]– الرفاعي، عصر المأمون، ص٤٠٣.

والعجم، حتى قالوا إن في ديوانه ألف مثل للعرب وألف مثل للعجم. وحكمته نتاج تجارب ذاتية يقدمها في شكل وعظ يقول:[1]

لا يعجبنك من يصون ثيابه حذر الغبار وعرضه مبذول
ولربما افتقر الفتى فرأيته دنس الثياب وعرضه مغسول

ومن أروع قصائده في الحكمة قصيدته التي يقول فيها:[2]

لا خير في ود إمرئ متملق حلو اللسان وقلبه يتلهب
يلقاك يحلف أنه بك واثق وإذا توارى عنك فهو العقرب
يعطيك من طرف اللسان حلاوة ويروغ منك كما يروغ الثعلب

ومنها:

واخفض جناحك للأقارب كلهم بتذلل واسمح لهم إن أذنبوا
وزن الكلام إذا نطقت ولا تكن ثرثارة في كل نادٍ تخطب
واحفظ لسانك واحترز من لفظه فالمرء يسلم باللسان ويعطب

فموضوع الزهد في العصر العباسي لقى اهتماماً أكبر، وشغف بقراءة قصائده وإنشادها. ولم يعد الزهد كما في العصور السابقة مجرد ميل فطري إلى الزهادة، وتقوى الله. أو حالة من حالات الإيمان التي يصورها الشاعر. بل أصبح فكرة يعتنقها، ولا يكاد يصور سواها من المشاعر والأحاسيس. وكان الدافع إليه إضافة إلى الدافع الديني؛ أنه أصبح تيار معاكس لمظاهر المجون والزندقة التي شاعت في العصر، فنجد الشعراء انتهجوا الطريقة القديمة نفسها في التذكير بالموت، وبفناء الحياة الدنيا، ووعظهم بالإفادة من تجارب سابقيهم. وكل ما كتبوه كان ناتجاً عن تجربة ذاتية، وفكرة ناضجة، وعقول راجحة.

نلاحظ مما تقدم في هذا الفصل، أن شعر العصر العباسي، رغم مظاهر الحياة الجديدة التي اقتضت التجديد فيه، نجده لم يخرج عن إطار الشعر التقليدي، وظل محافظاً عليه بفضل قوة تأثير الشعراء البدو ورجال الدين وتشجيع الخلفاء للنظام التقليدي في القصيدة العربية.

---

[1]- شوقي ضيف، العصر العباسي الأول، دار المعارف، مصر، ط٨- ص٣٩٧،.

[2]- شوقي ضيف، العصر العباسي الأول -ص٣٩٧.